فنون الأدب العربي

الفن القصصي

٣

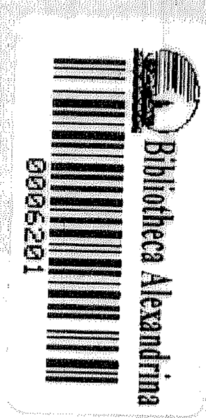
الترجمة الشخصية

بقلم

الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف





الترجمة الشخصية



فنون الأدب العربي
الفن القصصي
٣

الترجمة الشخصية

بقلم
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حاولت فى هذا الكُتيِّب أن أعرض صُوَر التّرجمة الشخصية عندالعرب فى عصورهم المختلفة ، من العصر العباسى إلى العصر الحديث ، وهو فن مستحدث عندهم ، قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التى قرءوا آثارها ، وخاصة اليونان ، فإن بعض متفلسفتهم ترجم لنفسه ، وتحدث عن كتبه . وحاكاهم متفلسفو العرب ، واتسعت المحاكاة : فدخل فيها العلماء والمتصوفة ورجال السياسة .

وكان لكل طائفة منهجها الخاص ، فالفلاسفة والعلماء ، إنما عُنوا بالتحدث عن حياتهم الفلسفية أو العلمية وما ألفوا وخلّفوا من مصنفات ، وقلما وقف شخص منهم عند طفولته ونشأته والمؤثرات الخارجية المختلفة التى وقعت عليه وأثرت فى حياته . ويظهر أنهم لم يفطنوا إلى ضرورة ذلك ، ومن ثَمّ كانت هذه التراجم فقيرة من حيث المادة النفسية والاجتماعية ، إذ تصبح فى أغلب الأمر ثَبَتاً لمؤلفات الفيلسوف أو العالم غير معنية بشىء من بيئته أو حياته .

ولم يَتجنّبِ المتصوفة فى هذا الاتجاه ، فقد عنوا بالحديث عن تجاربهم الروحية وكأنهم يريدون بها جذب الناس إلى طريقهم وما فيه من مواجد ومشاعر ومقامات ومشاهدات ، وقلما اعترفوا بأخطائهم أو تحدثوا عن نقائصهم . ومع أنهم يُطرفوننا أكثر من المتفلسفة والعلماء بوصفهم لتجاربهم الدينية ، إلا أنها تجارب محدودة بهذا المجال ، ولا تخوض بنا فى الحياة البشرية العامة بكل مافيها من قبح وحسن ، ونقص وكمال ، وضعف وقوة .

وكتبَ بعضُ الساسة ورجال الحرب تجاربهم فى حياتهم السياسية أو الحربية ، وهى تجارب خارجية فى أكثرها ، ولكنها تصور جوانب مهمة من أحداث حياتنا فى العصور الوسطى . إذ اتفق أن كان من هؤلاء الرجال دعاة لبعض النحل الدينية السياسية وأبطال أسهموا فى الحروب الصليبية غرباً وشرقاً فى الأندلس والشام . فقدموا لنا مذكرات ووثائق تاريخية خطيرة ؛ وإن كانوا قلما قدموا حياتهم الخاصة فى شكل يوميات دقيقة .

حتى إذا كان العصر الحديث رأينا الترجمة الشخصية عندنا تتطور تحت تأثير ما قرأ أدباؤنا وكتابنا للغربيين من تراجم كاملة عن حياتهم ، وقد وصفوها فيها من جميع أطرافها ، بعيوبها ومحاسنها ، بل لقد تحولوا بها إلى اعترافات صريحة بدون أى تحرج أو تصنع . وبذلك غدت الترجمة الشخصية عندهم ضرباً من القصص الحى البديع .

وربما كان طه حسين خير من جارى الغربيين فى هذا المضمار . فقد كتب عن طفولته وشبابه فى « الأيام » بدون أى تمويه ، وأعطانا صورة تامة لكل ما اضطرب فيه بسبب فقده لبصره فى سن مبكرة ؛ ولكل ما أثر فيه بسبب نشأته الأولى . وسكب على « أيامه » كثيراً من فنه ، فجاءت قطعة أدبية رائعة . وكتب أحمد أمين حياته فى يسر وبساطة ، مصوراً بيئته وظروفه تصويراً وافياً . وقد ألممنا بذلك كله فى إيجاز بقدر ما تسمح به حلقة فى هذه السلسلة . وعلى الله قصد السبيل .

القاهرة فى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٥٦ م   شوقى ضيف

لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التى كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم ، فيعرفون بأنفسهم ، وقد يذكرون بعض أعمالهم . واشتهر المصريون فى عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفى معابدهم وهيا كلهم من تواريخهم وأفعالهم. وكانت تسرى هذه الروح فى الأمم القديمة من حولهم. وقد سجل يوليوس قيصر فى كتابه «التعليقات» حروبه فى الغال والحرب الأهلية بينه وبين بومبى . وعرض عرضاً بارعاً الدسائس والمؤامرات التى كان ينسج خيوطها من حوله من الأصدقاء والأعداء على السواء .

وأثر عن ملوك الفرس وصايا لأبنائهم توضح سياستهم، نقلها عنهم العرب فيما نقلوه من تواريخهم وأخبارهم ، وفى كتاب « تجارب الأمم » لمسكويه أن كسرى أنو شروان ألف كتاباً فى سيرته وسياسته. واكتفى مسكويه فى التعريف به ببعض صفحات من هذا الكتاب تصور حروبه وانتصاراته على الروم والترك والديلم ؛ كما تصور سياسته الداخلية ونشره للعدل فى رعيته وتخفيفه لمغارم الضرائب عنها ، حتى تقوى على عمارة الأرض واستخراج ثمارها .

ومع مر التاريخ نشأ المؤرخون ، ونشأت طبقات من المفكرين والفلاسفة ، أودعت كتاباتها كثيراً من حياتها وأحوالها وتجاربها، وكان من أهم ما قرأ له العرب فصولا طويلة فى ذلك جالينوس الفيلسوف والطبيب اليونانى المشهور ، فإنه ضمن كتبه الكثيرة التى نقلوها نبذاً ونوادر متفرقة عن حياته ، وخاصة فى مؤلفيه : « مراتب قراءة كتبه » و « فينكس كتبه » أو فهرسها الخاص . وفيهما صور نشأته وحياته العلمية تصويراً دقيقاً . ومن قوله فى المؤلف الأول : « إن أبى لم يزل يؤدبنى بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضات التى تؤدب بها

الأحداث ، حتى انتهيت من السن إلى خمس عشرة سنة، ثم إنه أسلمنى إلى تعليم المنطق، وقصد بى حينئذ إلى تعليم الفلسفة وحدها ، فرأى رؤيا دعته إلى تعليمى الطب . . . وقد أتت علىّ من السنين سبع عشرة سنة » . ويعرض علينا فى فهرست كتبه مؤلفاته وتاريخ تأليفها ويشرح ما فيها من الآراء ، ويذكر بعض الحوادث التى مرت به ، بحيث يمكن أن يقال إن هذا المؤلّف والمؤلّف السابق له ترجمة ذاتية أو شخصية لجالينوس .

وليست ترجمة جالينوس ولا ترجمة كسرى أنو شروان كل ما قرأه العرب من تراجم شخصية أجنبية فإنهم قرءوا فى كتاب «كليلة ودمنة» الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسيه ترجمةً لبَرْزَوَيْه رأسِ أطباء فارس الذى نقل للفرس هذا الكتاب عن أصوله الهندية ، وتبدأ الترجمة على هذا النحو :

« أبى كان من المقاتلة ، وكانت أمى من عظماء بيوت الزمازمة "المجوس" وكان مَنْشئى فى نعمة كاملة، وكنت أكْرَمَ ولدِ أبوىَّ عليهما، وكانا بى أشد احتفاظاً من دون إخوتى ، حتى إذا بلغت سبع سنين أسلمانى إلى المؤدِّب، فلما حذقت فى الكتابة شكرت أبوى ، ونظرت فى العلم ، فكان أول ما ابتدأت به وحَرَصت عليه علمُ الطب ، لأنى كنت عرفت فضله . وكلما سدّدت منه علماً ازددت فيه حرصاً وله اتباعاً . فلما همّت نفسى بمداواة المرضى وعزمت على ذلك آمرتها "شاورتها" ثم خيّرتها بين الأمور الأربعة التى يطلبها الناس وفيها يرغبون ولها يسعون ، فقلت: أى هذه الخلال أبتغى فى علمى وأيها أحرى بى فأدرك حاجتى؟ آلمال أم الذكْر أم اللذات أم الآخرة ؟ وكنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه ، لا يبتغى إلا الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ، لئلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوى شيئاً » .

ثم يمضى برزويه فيقص علينا فى حديث مسهب سيرته فى مداواة المرضى

وكيف كان يزجر نفسه عن النظر إلى مَنْ هم دونه فى العلم وفوقه فى الجاه والمال ، وكيف كان يُقبل على تقديم الخير للناس ابتغاء الدار الآخرة غير مؤثر للذة ولا منخدع بمنفعة ولا بصلة لقريب أو صديق . ثم يحدثنا أنه شك فى دين آبائه وأجداده . فالتمس ديناً جديداً ودعاه ذلك إلى أن يبحث فى الأديان ، وطال بحثه وتفكيره وتردده . وأخيراً انتهى إلى مجموعة من الفضائل توافق كل الديانات . كما انتهى إلى النسك والزهد فى الدنيا ومتاعها وشهواتها وكل ما بها من زخارف الحياة . وهى ترجمة بديعة . وإن كان يُظَنّ أنها استُخدمت فى الأصل الفارسى للدعوة إلى مذهب «مانى» الذى عُرف عندهم والذى كان يدعو إلى رفض الشهوات واطراح اللذات ، مما ليس هنا تفصيله . على كل حال قرأ العرب هذه الترجمة لبرزويه ، وكان لها أثرها فى تصورهم للترجمة الشخصية . وإن لم يبلغ هذا الأثر مبلغ ترجمة جالينوس لنفسه كما سنرى فى الفصول التالية .

وإذا كان العرب فى العصر العباسى عرفوا بعض ما كان عند الأجانب من هذه الترجمة فإنهم فى العصر الحديث عرفوا أيضاً كثيراً مما كتبه الغربيون فى هذا الباب ، ولسنا نستطيع أن نُحصى هنا أعمال الغربيين ، فهى كثيرة ومتنوعة ، ولكل أمة تراجمها الممتازة . بحيث يؤلف هذا الفن عند القوم ، كل فى محيطه وبيئته ، سلسلةً متلاحقة من الآثار . ومن أروع التراجم عندهم « الاعترافات » لجان جاك روسو ، وهو يقول فى فاتحتها : إنه سيعرض نفسه على حقيقتها ولن يموه فيها ، ولن يخفى سيئة أو يزيف حسنة ، إنما سيذكر الحق مجرداً ، ولن ينقص منه شيئاً . ومضى فعرض حياته عرضاً دقيقاً . ولمعاصره « جيته » ترجمة شخصية سماها « الشعر والحقيقة » عرضها بأسلوبه الرائع .

وكثرت هذه الترجمة فى القرن التاسع عشر ؛ وممن ترجموا لأنفسهم فيه ستندال ، وتتميز ترجمته بنظرات تحليلية فى الطبائع الإنسانية فى نفسه وفيمن حوله ، وكان من رأيه أن الأديب ثمرة كل الظروف التى تحيط به ، وبهذا الرأى تأثر فى كتابته عن نفسه ، وحاول أن يرد عواطفه وكل ما يتصل به إلى محيطه .

ولتولستوى ترجمة معروفة سماها « طفولة وفتوة وشباب » عرض فيها حياته عرضاً دقيقاً ، و الفلاسفة الغربيون الذين ترجموا لأنفسهم كثيرون وهم يكشفون لنا فى تراجمهم عن حياتهم العقلية وتطورها ، بحيث لا يستغنى عنها دارس لفلسفتهم .

ولن نستطيع أن نذكر هنا كل من ترجموا لأنفسهم فى الغرب ، إنما حسبنا أن نشير إلى أن هذا الفن الأدبى له تراث كبير عند القوم ، وأن هذا التراث اطلع عليه أدباؤنا المحدثون ، وأنهم أفادوا منه فى صنعهم لتراجمهم التى نقرؤها لهم ، وخاصة حين نجدهم يعرضون لأطراف حياتهم فى صراحة ، وحين يخوضون فى المؤثرات التى أثرت فيهم . ومن المحقق أن فن التراجم الغربية ارتقى عند القوم ، حتى أصبحت الترجمة شيئاً طريفاً يُقْرأ ، بما وضعوا فيها من اعترافاتهم ، وضمنوها من سيئاتهم وحسناتهم . وليس ذلك فحسب ، فهم يكتبون على ضوء الفكر الحديث وآرائه النفسية فى الفرد والجماعة ، وبذلك يتيحون لنا دراسة ممتعة لأشخاصهم فى العوالم التى ينتسبون إليها ، ونقصد عوالم الفلسفة والأدب والعلم . وقد يتخذ بعضهم ستاراً من القصة ، ولكن مع ذلك تُعْرَفُ الحقيقة ، فإذا القصة حين تُغيَّر الأسماء فيها تصبح علماً عليه وعلى أهله وأصدقائه والأشخاص الذين عرفهم ، على نحو ما هو معروف عن قصة « راعى و يكفيلد » لجولد سمث ، ولم تشتهر قصته فى هذا الباب كما اشتهرت قصة « ديفد كوبَرْ فيلد » لديكنز فإنه قص فيها حياته الأولى ، وليس « مستر مكوبَر » تلك الشخصية البديعة فى القصة إلا أبوه بكل ما يميزه من سمات . و يمكن أن نقول بصفة عامة إن كثيراً من مواقف القصص ، بل إن كثيراً من أبطالها يصورون كاتبها فى ظروف معينة ؛ فالكاتب كثيراً ما يستمد من واقع نفسه وتجربته الذاتية ، ولا يضعف ذلك من عمله ، بل قد يرفع منه أحياناً ، لأنه يجعل التجربة التى نقرؤها فى القصة تجربة صادقة معبرة عن واقع حقيقى .

ولعل من الطريف أن أدباءنا المعاصرين قلدوا الغربيين فى العملين أو الوجهتين جميعاً ، فهم تارة يكتبون تراجم شخصية كاملة ، يرسمون فيها

حياتهم رسماً دقيقاً ، لا ينسون فيه البيئة والوسط والظروف الخارجية : وتارة أخرى يقصّون على طريقة القوم قصصاً يصور حياتهم ، إن لم يكن تصويراً كاملا ، فهو تصوير لبعض تجاربها . ومن أمتع ما كُتب فى هذا اللون قصة «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم عبدالقادر المازنى . حقّاً أنه لا يصح أن نعتمد كل الاعتماد على ما جاء فى هذه القصة من حوادث لمعرفة حياة المازنى . ولكنها فى جملتها تعد تصويراً لوقائعه وتجاربه الشخصية .

وكتابة القصة على هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لا تعد ترجمة ذاتية له بالمعنى الدقيق ، لأنه يضيف إلى تجاربه تجارب أخرى من محيطه : ولكنها على كل حال تعد تعبيراً عن نفسه. وإن لم يكن تعبيراً دقيقاً على نحو ما نجد فى الترجمة الشخصية التى تنحصر فى تجارب الكاتب . ولا يُضاف إليها أى تجربة من الخارج . ولا أى حادثة . من شأنها أن تضع ستاراً أو لثاماً بيننا وبين حقائقه .

الفصل الأول

تراجم فلسفية

١

المتفلسفة يترجمون لأنفسهم

قدمنا فى التمهيد أن العرب قرءوا ترجمة بَـرْزَوَيْه الطبيب لنفسه كما قرءوا كتب جالينوس وقد أكثر فيها من الحديث عن تربيته وسلوكه ومؤلفاته وما صادفه من بعض المحن. فكان طبيعياً أن يتأثره بعض المتفلسفة من العرب فى هذا الاتجاه .

وأكبر مترجم لكتب جالينوس هو حُنَيْن بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣ م إذ كان يعجب به إعجاباً شديداً ، فكان طبيعياً أن يقتدى به فى الحديث عن نفسه ، وأن يؤلف فى ذلك بعض آثاره . وتصادف أنه وقعت له محن من بعض نُظَرائه وأبناء حرفته . إذ كان يحترف الطب ، وقـرَّبه منه المتوكل ، الخليفة العباسى المشهور ، فكانوا ينقمون عليه ذلك ، وما لبثوا أن أخذوا فى الكيد له ، فادّعوا أنه يمزق الصور الدينية ، وما زالوا به حتى غضب عليه الجاثليق .

وكان هذا الصنيع يحدث ضيقاً شديداً فى نفس حنين . فكتب رسالة صور فيها ما أصابه من المحن والشدائد فى ذلك معبراً عن مدى حزنه . واحتفظ لنا ابن أبى أصَيْبِعَة فى كتابه « طبقات الأطباء » بهذه الرسالة التى تعد أقدم نَص فى ترجمة المتفلسفة لأنفسهم ، وهى تبدأ على هذا النمط .

« إنه لحقنى من أعدائى ومضطهدىّ الكافرين بنعمتى ، الجاحدين لحقى ، الظالمين لى ، المتعدّين على من المحن والمصائب والشرور ما منعنى من النوم وأسهر عينى وأشغلنى عن مهماتى . وكل ذلك من الحسد لى على علمى وما وهبه الله عز

وجل لى من علو المرتبة على أهل زمانى . وأكثر أولئك أهلى وأقربائى . فإنهم أول شرورى وابتداء محنى ، ثم من بعدهم الذين علّمتهم وأقرأتهم وأحسنت إليهم وأرفدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة وقربت إليهم علوم الفاضل جالينوس . فكافئونى عوض المحاسن مساوئ بحسب ما أوجبته طباعهم وبلغوا بى إلى أقبح ما يكون من إذاعة أخس الأخبار . . حتى ساءت بى الظنون وامتدت إلىّ العيون ؛ ووُضع علىّ الرَّصَدُ . حتى إنه كان يحصى علىّ ألفاظى ويكثر اتهامى بما دق منها مما ليس غرضى منه ما أومئوا إليه . فأوقعوا بغضتى فى نفوس سائر أهل الملك فضلا عن أهل مذهبى ، وعُملتْ لى المجالس بالتأويلات الرذلة » .

وحنين حزين فى مطلع الرسالة لأن من يكيدون له ، ويناصبونه العداء ، من أهله وتلاميذه الذين كان ينتظر منهم العون على المحن لا تدبيرها وحوك خيوطها. وكم يحزن النفس حقاً أن تكون اليد التى ينتظر منها الإنسان الشكر على ما قدم لصاحبها هى التى تستلّ عليه الآلة القاتلة ، وتحاول أن تطعنه الطعنة القاضية . وهو لون بغيض من ألوان الهون والذلة فى بعض الناس إذ يعود ما يتقدم إليهم من جميل عاملاً لا من نكران الجميل فحسب ، بل عاملا من عوامل الفتك والإهلاك. وقد أعيا هؤلاء الجاحدين أن يأتوا حُنَيْناً من قبل علمه ومهنته ، فأتوه من قبل دينه وعقيدته ، والعقيدة مغيبة عن الناس . ومفروض أن من يعرفها فى الشخص ذوو قرباه ومن اتصلوا به من تلاميذه ، فإذا أجمعوا أمرهم على أن عقيدته فاسدة كانوا قد طعنوه الطعنة النجلاء .

ويحدثنا حنين أن الباعث للقوم على ذلك كله علمُه وحسدٌ رُكّب فى نفوسهم ، إذ رأوه ينقل عن جالينوس وفلاسفة اليونان آثارهم فى لغة عربية فصيحة ، لا لحنَ فيها ولا استغلاق ، بل بأعذب ما يكون من اللفظ وأقربه إلى الفهم . ويعزّى نفسه بما أصاب من منزلة بين أهل الأدب ، ثم يعود إلى الأسى والحسرة ، فإن

من يعادونه هم الأطباء النصارى الذين تعلموا على يديه ، وأنهم ليحاولون أن ينقصوا من علمه وفضله فى الطب ، فيقولوا إنه ناقل ولا يحسن من هذه الحرفة شيئاً ، وفى الوقت نفسه يتتلمذون عليه ، وإذا مرض أحدهم صار إليه ، حتى يأخذ منه الدواء . ويذكر أنهم ستة وخمسون رجلا ، وهم متفرقون فى خدمة الأمراء والوزراء . ناقمون عليه منزلته من الخليفة المتوكل ، وما يزالون يوغرون الصدور عليه ، وهو لا يقابل ذلك إلا بالصبر وغض الطرف ، وإذا ذُكر أحدهم أمامه أثنى عليه . لما يجمعه معه من الديانة والبلدة والصناعة ، ثم يقص علينا مكيدة دبرها له معاصره المشهور : بختيشوع بن جبرائيل لدى الخليفة المتوكل ، فقد استطاع أن يقنع الخليفة بأنه زنديق ملحد فى دينه ، إذ أحضر لديه صورة للعذراء وابنها ، والملائكة تحف بهما ، وقبّلها أمامه مراراً ، ثم قال له ادع حنين ، واعرضها عليه . وانظر ماذا يفعل ، وذهب من توه إلى حنين فذكر له أن الخليفة عرض عليه صورة للمسيح وأمه ، فبصق عليها ، وسُرّ الخليفة من ذلك . ثم قال : فإذا عرضها عليك فاصنع بها صنيعى . وأنفذ حنين ما أشار به صديقه ، فغضب المتوكل عليه وأمر أن يُزَجّ به فى السجن . ثم تصادف أن مرض المتوكل ، ولم يستطع بختيشوع ولا غيره أن يبرئه من مرضه ، فقال : علىّ بحنين ، فوصف له دواءً كان سبب شفائه ، فعفا عنه .

والرسالة على هذا النحو خاصة بمحن حنين ، وهى محن لا تشرف المجتمع الذى عاش فيه ، أو بعبارة أدق لا تشرف الأطباء من زملائه ، بل إنها تصمهم بأقبح ما يتصف به إنسان من حقد وكنود وأثرة ، حتى إنهم ليعمون فى سبيل غاياتهم عن كل معنى من معانى البر والرحمة ، بل إنهم ليتحولون إلى مخلوقات شريرة لا تعرف سوى الختل والغدر وما إلى ذلك من قبيح الصفات والشيم المكنونة فى النفوس الحقيرة .

وإذا كان حنين تأثر فى هذه الرسالة بما كتبه جالينوس عن بعض محنه فإن متفلسفاً آخر كان يعاصره هو محمد بن زكريا الرازى ، تأثر جالينوس لا فيما كتبه

عن محنه أو تجاربه ، وإنما فى كتبه عن سيرته وسلوكه الفلسفى، فقد خلّف لنا رسالة وصف فيها سيرته الفلسفية.

والرازى أكبر أطباء عصره ومتفلسفته ، دبّر مارستان (مستشفى) بلدته الرّىّ ثم دبر مارستان بغداد ، وخدم فى غير بلاط ، وترك كثيراً من الآثار فى الطب والفلسفة بفروعها ، توفى سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م . وقد تُرجم عدد من مؤلفاته إلى اللاتينية ، وظل إلى القرن السادس عشر حجة فى الطب بالعالم الشرقى والغربى .

ورسالته فى سيرته دفاع عن هذه السيرة وأنها حقًّا سيرة فيلسوف أو متفلسف ، وهو يستهلها بأن ناساً عابوا عليه مداخلة الأمراء وأصحاب السلطان والتصرف فى وجوه من المعاش ، وقالوا إنه لا يسير سيرة سقراط وما أُثر عنه من الزهد فى الدنيا ومتاعها ، حتى إنه كان لا يشرب خمراً ولا يأكل لحماً ولا أعقب نسلا ، ومع ذلك فهذه السيرة لسقراط فى رأيهم مخالفة لمجرى الطبع وقيام النسل وداعية إلى انقراض العالم وبوار البشرية وهلاكها. وردّ الرازى على ذلك بأن ما يقولونه عن سقراط غير صحيح فى جملته ، فقد كان يسير هذه السيرة فى ابتداء أمره ، ثم انتقل عنها ، فتزوج وحارب العدو وحضر مجالس اللهو ، ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً فى خراب الدنيا وبوار العالم .

ويستطرد الرازى من ذلك إلى بيان سيرته ، وهى السيرة الفلسفية التى يرى أن يتصف بها محبّو العلم ومؤثروه ، فيقول إننا لم نخلق لإصابة اللذات الجسدية ، وإنما خلقنا لاقتناء العلم واستخدام العدل : والطبيعة والهوى يدعواننا إلى المتع الحسية : بينما يدعونا العقل كثيراً إلى رفض هذه المتع والعدول عنها إلى العدل والعلم اللذين طلبهما الله منا ، فإنه يكره الجور والجهل . وإن العاقل من حسب حساب آخرته وامتنع عن كل لذة تعقب ألماً أو ضرراً يعود عليه . وما دام العالم الآخر هو الدائم غير المنقطع فالمغبون من اشترى لذة بائدة هالكة بلذة باقية غير منقطعة ولا فانية . وقد أحل الله لنا جميع الطيبات . على أن من الفلاسفة من يترك كثيراً من المباحات لتمرين نفسه على ذلك وتعويدها عليه . ولما كنا لا نحب أن يقع بنا ألم

فإن من الواجب أن لا نؤلم غيرنا من الناس والحيوان، فلا نظلم ولا نتلذّذ بالصيد ولا نكدّ البهائم إلا مع قصد ومذهب عقلى عادل . ويرى أن من حقنا قتل الحيوان المفترس والمؤذى مثل الحيات والعقارب ، كما أن من حق كل شخص أن يأكل اللحم وأن يمتنع عنه . وما دام الواجب أن لا يؤلم الإنسان غيره ، فينبغى أن لا يؤلم نفسه على نحو ما يصنعه الهند من التقرب إلى الله بإحراق أجسادهم وطرحها على الحدائد المشحوذة . والناس مختلفون، منهم المترف الذى رُبى فى النعيم، ومنهم البائس الفقير ، وليس سيان من ينشأ فى غنى وترف ومن ينشأ فى فقر وشظف ، وينبغى للفيلسوف أن تكون سيرته فى طعامه وثيابه ومسكنه على الحد الأوسط من الاعتدال والامتناع عن الإسراف فى اللذات .

ثم يأخذ الرازى فى بيان سيرته وأنها تطابق هذه السيرة الفلسفية المعتدلة علماً وعملا ، فأما العلم فقد ثابر على القراءة والدرس ، حتى أصبح متفلسفاً يؤلف فى البرهان وفى العلم الإلهى وفى الطب الروحانى وفى المدخل إلى العلم الطبيعى وفى الزمان والمكان والمدة والدهر وفى شكل العالم والفلك وفى الجسم والنفس والمادة وفى الطب والكيمياء . ويسمّى بعض كتبه ويقول إنها بلغت نحو مائتين . ثم يقول إنه فى العمل أو الجزء العملى يجرى على طريقة الفلاسفة ، وإذا كان يداخل السلطان فلأجل مداواته فى مرضه ، أما فى عافيته فإنه يؤانسه ويشير عليه بما فيه صلاح نفسه وصلاح الأمة . وهو بعد ذلك ليس عنده شره فى جمع مال ولا سرف فيه ، ولا ميل لمخاصمات الناس ومنازعاتهم ولا رغبة فى ظلمهم . أما مطعمه ومشربه ولهوه فهو فى كل ذلك مقتصد اقتصاده فى ثيابه وما يتخذ من مركب أو خادم أو جارية . وهوايته التى تستنفد وقته هى محبة العلم وتحصيله والإكباب عليه إكباباً شديداً : إكباب على القراءة ولقاء العلماء وإكباب على التأليف ، حتى ضعف بصره وشلّت يده ، وأصبح يستعين بمن يقرأ له ويكتب . وعلى هذه الشاكلة يعرفنا الرازى أولا بسيرة الفيلسوف المثالية ، ثم يطبقها على نفسه ، ليرى قارئه أنه يسير سيرة القوم فى حياتهم العلمية والعملية . وكان الرازى حقاً مثلا

ممتازاً للفيلسوف ، الذى يأخذ نفسه بما ينشر من آراء وأفكار .

وإذا كان الرازى تأثر بجالينوس فى كتابته لسيرته الفلسفية وما قصّه عن سلوكه وتأثر من قبله حنين بن إسحق بما كتبه عن بعض محنه ، فإن من خلفهما من المتفلسفة تأثر به مباشرة فى كتابيه : « مراتب قراءة كتبه » و « فينكس كتبه » فأخذوا يكتبون لأنفسهم تراجم شخصية يعرضون فيها نشأتهم الفلسفية . وما صنفوه وألفوه من كتب مختلفة .

٢

ابن الهيثم

متفلسف عراقى ولد بالبصرة سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م وعنى منذ صغره بالعلوم الطبيعية والرياضية ، وبرع فى الأخيرة براعة منقطعة النظير ، حتى أصبح أكبر عـالِم فيها لعصره . وقرَّبه لذلك حاكم بلدته ، وجعله من كبار رجال دولته ؛ لكنه سرعان ما عزف عن الوظيفة السياسية وانقطع للدرس والبحث . ويقال إنه سمع بنهر النيل وزيادته ونقصانه الدائبين . فقال إنه يستطيع أن يتحكم فيه بالزيادة والنقص ، ونُقل ذلك إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى المعروف ، فاستدعاه لتحقيق ذلك ، ولـبّى دعوته ، إلا أنه حين عاين النيل ودَرَسه انكسرت همته ، وعرف أن أمره لا يجرى حسب ما ظنه . فاعتذر للخليفة . وقبل عذره ، وعينه ببعض الدواوين ، وقَبِل ذلك خوفاً من بطشه المشهور عنه لا رغبة فى الوظيفة ، ثم أجال فكره فى أمر يتخلص به منه ، فلم يجد وسيلة إلى ذلك إلا إظهار البله والخبال ، فصُرف عن عمله ، وظل على هذه الصورة المشوَّشة حتى توفى الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه من التأليف

والاشتغال بالفلسفة والرياضة ، حتى وافاه أجله سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م .

واحتفظ لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » برسالة نقلها من خطه ، وهي مقالة فيما صنعه وصنفه من علوم الأوائل إلى آخر سنة سبع عشرة وأربعمائة للهجرة . والمقالة بعنوانها تتصل مباشرة بما كتبه جالينوس عن كتبه ومصنفاته مما قدمنا عنه الحديث في التمهيد، وهو يستهلها على هذا النمط .

« إني لم أزل منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي ، فكنت متشككاً في جميعه موقنا بأن الحق واحد وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه . فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق . ووجهت رغبتي وحرصي إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون . وتنقشع غيابات المتشكك المفتون . وبعثت عزيمتي إلى تحصيل الرأي المقرب إلى الله جل ثناؤه، المؤدي إلى رضاه ، الهادي إلى طاعته وتقواه . فكنت كما قال جالينوس في المقالة السابعة من كتابه "في حيلة البرء" يخاطب تلميذه : لست أعلم كيف تهيأ لي منذ صباي — إن شئت قلت باتفاق عجيب : وإن شئت قلت بإلهام من الله ، وإن شئت قلت بالجنون ، أو كيف شئت أن تنسب ذلك — أني ازدريت عوام الناس ، واستخففت بهم ولم ألتفت إليهم . واشتهيت إيثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندي أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئاً أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين . فخضعت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الديانات فلم أحظ من شيء منها بطائل . ولا عرفت منه للحق منهجاً ولا إلى الرأي اليقيني مسلكاً جددا "واضحاً" له . فرأيت أنني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية . ولم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات التي هي ذات الفلسفة » .

وواضح من هذا المطلع لترجمة ابن الهيثم أنه شغل منذ أول أمره باختلاف

الفِرَق ، وقد اهتدى بفطرته إلى أن الحق واحد وأن الاختلاف بين الطوائف والملل والمذاهب إنما هو فى طريق الوصول إليه، واقتنع بأن معرفة الحق هى التى تقربه إلى ربه ، فبعث عزيمته إلى هذه المعرفة التى لا تنال إلا بالعلم . وبذلك تحددت وسيلته وغايته ، فهو يتوسل بالعلم إلى معرفة الحق الذى يرضى الرب ويهدى إلى طاعته وتقواه . وحاول ذلك أولا عن طريق كتب الآراء والاعتقادات فلم يحظ بطائل ، وهداه تفكيره إلى أنه لن يصل إلى الحق إلا عن طريق آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية ، وبحث عن هذا الطريق فلم يجده إلا فى كتب أرسطاطاليس وما رسمه فى المنطق والطبيعيات والإلهيات.

وكل ذلك معناه أنه كان ينزع فى تفكيره الفلسفى منزعاً دينيّاً ،وتشهدبذلك مؤلفاته ، فهو يردّ فيها على منكرى النبوات والمارقين عن الدين مثل ابن الراوندى . وهو يعلن إيثاره لكتب أرسطو على كتب غيره من الفلاسفة فقد وجد فيها ضالته ، وهى الربط بين الأمور الحسية ربطاً ينتهى بها إلى الصور العقلية التى كان ينشدها .

ونراه بعد هذه المقدمة يتحدث عن كتب أرسطاطاليس فى المنطق والرياضيات والطبيعيات والإلهيات حديثاً تفصيليّاً يصور فيه كيف أن أفكارها تتسلسل ، فتُسْلم كل حلقة إلى أختها ، حتى تنتهى إلى الإلهيات : وقد استقرت فى عقولنا الفروع والأصول . وابن الهيثم دقيق كل الدقة فى فهمه لفلسفة أرسطاطاليس التى لم تكن تعتمد على شىء مثالى أو خيالى على نحو ما هو معروف عن أستاذه أفلاطون ، إنما كانت تهتم بالمحسوسات أو قل إنها كانت تبدأ منها ، ولم يكن يدرس العام ليتحول منه إلى الخاص، بل كان يدرس الخاص ليتحول منه إلى العام ، فهو يبدأ بالجزئيات ثم يتحول إلى الكليات .

وانتفع ابن الهيثم بهذا المنهج فى تفكيره الرياضى : فلم يقف به عند التفكير النظرى أو التفكير الكلى العام ، بل أخذ يعنى بالجزئيات وبالتجارب ليصل من ذلك إلى نظرياته وآرائه فى فلسفة الضوء وغيره ، واستطاع أن يسجل ملاحظات

نفسية هامة فى الإبصار والإدراك الحسى ، وبذلك أخذت الأبحاث الرياضية عنده شكلا علمياً قائماً على الفحص والتجربة ، ولم تضلّ فى أعماق أومتاهات وراء المادة ، فقد تلقن كما يقول هنا فى هذه المقالة البديعة أن يهتم بالحسّ بل أن يبدأ به دائماً ؛ وأن لا يتكلم فيما ليس له مشخصات فى الخارج وإلا كان كمن يرقم فى الماء . فالتفكير الرياضى ليس شيئاً وهمياً ولا خيالياً .، وإنما هو آراء مستنبطة من تحليل الظواهر المادية . وبهذا التفكير المستقيم المستمد من فلسفة أرسطاليس الطبيعية الواقعية أصبح ابن الهيثم أكبر رياضى عرفه العالم الإسلامى.

ونراه بعد تحليله لفلسفة أرسطاليس يعلن إعجابه الشديد بها وأنه تعلق بأصولها ومبادئها ، يلخصها تارة ويشرحها تارة أخرى ، رياضة لفكره ورجاء أن ينتفع بها غيره من الناس ؛ وليجد فيها ذخراً ومتعة لوقت شيخوخته ، يقول :

« وأنا ما مُدّت لى الحياة باذلٌ جهدى ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك متوخياً به أموراً ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد وفاتى ، والآخر أنى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور فى إثبات ما أتصوره وأتقنه فكرى من تلك العلوم ؛ والثالث أنى صيّرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم ، فكنت فى ذلك كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه "فى حيلة البرء" : إنما قصدت وأقصد فى وضع ما وضعته وأضعه من الكتب إلى أحد رجلين ، إما إلى نفع رجل أفيده إياه ، وإما أن أتعجل أنا فى ذلك رياضة أروض بها نفسى فى وقت وضعى إياه وأجعله ذخيرة لوقت الشيخوخة » .

ثم يأخذ ابن الهيثم فى شرح مصنفاته فى الأصول الأرسطالية الثلاثة ، ويذكر أن ما صنفه فى العلوم الرياضية حتى هذا التاريخ الذى كتب فيه تلك الترجمة وهو سنة ٤١٧هـ/١٠١٦ خمسة وعشرون كتاباً ويحصيها واصفاً لكل منها . وأكثرها يدور فى الأصول الهندسية والعددية أو الحسابية ، ومنها ما يدور فى الفلك ورصد النجوم . وقدجعلته نزعته الدينية يخص سمت القبلة فى جميع المسكونة برسالة

خاصة ، كما كتب رسالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية .

ثم أحصى بعد ذلك كتبه فى العلوم الطبيعية والإلهية . وذكر أنها أربعة وأربعون كتاباً : ووصف طائفة منها . والصلة واضحة فيها بين أرسطو وبينه ، فهو تارة يلخص بعض كتبه ومقالاته وتارة يرد على من نقضوا بعض أقواله وآرائه. ومن بين ما ذكره رسالة فى بطلان ما يراه المتكلمون من أن الله لم يزل غير فاعل ثم فعل. ورسالة أخرى بعنوان أن فاعل هذا العالم إنما تُعلم ذاته من جهة فعله . والرسالتان جميعاً تصوران نزعته الدينية وأنه كانت له مشاركة فى أبحاث علم الكلام. ثم يُنهى رسالته بقوله :

« ذلك سوى رسائل ومصنفات عدّة حصلتْ لى فى أيدى جماعة من الناس بالبصرة والأهواز ضاعت دساتيرها . وقَطَعَ الشغلُ بأمور الدنيا وعوارض الأسفار عن نَسْخها . وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء : فقد اتفق مثله لجالينوس ، حتى ذكر ذلك فى بعض كتبه . فقال : وقد صنفت كتباً كثيرة ودفعت دساتيرها إلى جماعة من إخوانى وقطعنى الشغل والسفر عن نسخها ، حتى خرجتْ إلى الناس من جهتهم . وإن أطال الله لى فى مدة الحياة وفَسَح فى العمر صنفت وشرحت ولخصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد فى نفسى . ويبعثنى ويحثنى على إخراجها إلى الوجود فكرى ، والله يفعل ما يشاء ويُحكم ما يريد ، وبيده مقاليد كل شىء . وهو المبدئ والمعيد . وهذا ما وجب أن أذكره فى معنى ما صنعته واختصرته من علوم الأوائل . قصدت به مذاكرة الحكماء الأفاضل . والعقلاء الأماثل . . وقلت فى ذلك كما قال جالينوس فى كتابه « فى النبض الكبير » : ليس خطابى فى هذا الكتاب لجميع الناس بل خطابى لرجل منهم يوازى ألوف رجال بل عشرات ألوف رجال ، إذ كان الحق ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس لكن هو بأن يدركه الفَهِيم الفاضل منهم ، ليعرفوا رتبتى فى هذه العلوم ويتحققوا منزلتى من إيثار الحق ومن طلب القربة إلى الله فى إدراك العلوم والمعارف

النفسية .. فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل فى جميع الأمور الدنيوية ، والعدل هو محض الخير ، والذى يفعله يفوز من العالم الأرضى بنعيم الآخرة السماوى ، ويعتاض عن صعوبة ما يلقاه من ذلك مدة البقاء المنقطع فى دار الدنيا بدوام الحياة منعماً فى الدار الأخرى . وإلى الله تعالى أرغب فى توفيقى لما قرّب إليه ، وأزلف لديه » .

ويذكر ابن أبى أصَيْبعة أنه وجد فى نهاية الرسالة تاريخ كتابتها وهو ذو الحجة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، ويذكر بعقبه ما ألفه ابن الهيثم إلى سلخ جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وأربعمائة . ويتلو ابن أبى أصيبعة هذه المؤلفات الجديدة بفهرس وجده لكتب ابن الهيثم إلى آخر سنة تسع وعشرين أى إلى ما قبيل وفاته بمدة قصيرة . وبلغت كتبه ومقالاته فى هذا الفهرس الأخير نحو مائتى كتاب ومقالة . وهو إنتاج ضخم يدل على مدى ما قام به ابن الهيثم فى أبحاث الفلسفة الإسلامية من جهد مُضْنٍ ؛ وهو جهد خصب قدره الأوربيون منذ العصور الوسطى ، فترجموا كثيراً من آثاره إلى اللاتينية ، كما نقلوا آراءه وأفكاره إلى لغاتهم الحديثة .

٣

ابن سينا

أعظم فلاسفة الإسلام على الإطلاق ، ولد لأسرة إيرانية سنة ٣٧٠ هـ/٩٨٠م بالقرب من بُخَارى ، وكان أبوه يتصرف فى أعمال قرية خَرْمَيْثَن للسامانيين ، وكان بجانبها قرية تسمى أفْشَنَة تزوج منها ، وسكن فيها ، وبها ولد له هذا الفيلسوف العظيم . وقد عنى به منذ صغره ، فأحضر له المعلمين ، ووجهه إلى دراسة الحساب والفلسفة ، ولم يلبث أن تيقظت فى الصبى مواهبه ، فأقبل على دراسة الطب وما ترجم عن اليونان ، وتمثل كل ذلك ، كما تمثل كثيراً من معارف العرب والفرس والهند . ثم تحول يؤلف مستغلاً كل ما عرفه من مناجم الشرق والغرب ، وكاد لايترك ميداناً من ميادين المعرفة إلا ألف فيه ، فألف فى الطب والطبيعة وعلم الأحياء ، وفى الفلك والرياضة والكيمياء ، وفى المنطق والأخلاق والسياسة والتصوف وعلم الكلام ، ومن أهم ما اشتهر من كتبه فى الفلسفة « النجاة » و « الشفاء » ونال شهرة مدوية فى الغرب بكتابه « القانون » فى الطب ، إذ كان مرجع القوم حتى القرن السادس عشر .

وقد أثر ابن سينا تأثيراً عميقاً فى مجال الفكر الفلسفى الإسلامى ، وكان تأثيره فى الفكر الأوربى واسعاً ، فقد تُرْجم له غيرُ كتاب إلى اللاتينية ، حتى إذا كان العصر الحديث عُنى به المستشرقون فى اللغات الأوربية المختلفة ، وكتبوا فى فلسفته أبحاثاً واسعة . ومن حين قريب أقيمت الاحتفالات لعيده الألفى فى الشرق والغرب تقديراً لما قدم من خدمات للعلم والفلسفة والفكر الإنسانى ، مما جعله فخراً لقومه والعرب ، بل للإنسانية والحضارة العالمية . ولا عجب أن لُقِّبَ منذ عصره بالشيخ الرئيس .

وخلّف ابن سينا كثيراً من المؤلفات والمقالات التى تعد بالمئات، كما خلّف ترجمة ذاتية قصيرة يجدها القارئ فى ابن أبى أصيبعة . وصف بها شطراً من حياته منذ عُنى أبوه بتعليمه إلى السنة الثانية والثلاثين من عمره . وهى تجرى على هذا النمط :

« قال الشيخ الرئيس : إن أبى كان رجلاً من أهل بَلْخ ، وانتقل منها إلى بُخارى فى أيام نوح بن منصور السامانى أمير هذا الإقليم، واشتغل بالتصرف وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضِياع بخارى ، وهى من أمهات القرى وبقربها قرية يقال لها أفشنة ، تزوج أبى منها بوالدتى وقطن بها وسكن ، وولدتُ منها بها . ثم ولدتْ أخى ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرتُ معلم القرآن ومعلم الأدب . وأكملت العشر من العمر ، وقد أتيتُ على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يُقضى منى العجب . وكان أبى محمد أجاب داعىَ المصريين ، ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى . وابتدءوا يدعوننى أيضاً إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ (أبى) يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه . ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلى وكان يُدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه . وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين . وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب، على الوجه الذى جرت عادة القوم به . ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجى على الناتلى . ولما ذكر لى حدَّ الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ؟، أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل العجب ، وحذَّر والدى من شغلى بغير العلم . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيراً منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما دقائقه فلم يكن عنده

فيها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب أقليدس قرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لى الناتلى : تولّ قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم اعرضها علىّ لأبيّن لك صوابها من خطئها ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب . وأخذت أحلّ ذلك الكتاب ، فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهّمته إياه . ثم فارقنى الناتلى متوجهاً إلى كركانج . واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح من الطبيعى والإلهى . وصارت أبواب العلم تنفتح علىّ . ثم رغبت فى علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برّزت فيه فى أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة » .

فابن سينا يقول إن أباه كان من موظفى الدولة السامانية وأنه نشأ فى بخارى عاصمتهم ، وقد أحضر له المعلمين يعلمونه العلوم الشرعية واللغوية ، فحفظ القرآن وكثيراً من الأشعار ، وأظهر ذكاء نادراً ، ويقول إن أباه كان يؤمن بمبادئ الشيعة الإسماعيلية وما يقولونه فى النفس والعقل وإنه كان يعرف أطرافاً من الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وكذلك كان أخوه . وكانا يجرّانه إلى معتقدهما الإسماعيلى فكان يزورّ عنه ولا يجد له قبولا فى نفسه . وظل على ذلك بقية حياته ، يجفو الشيعة ومذاهبهم ، ويؤمن بما يؤمن به أهل السنّة من معتقدات .

ووجّهه أبوه إلى تعلم الحساب والعلوم الشرعية ، فأتقنهما ، وتصادف أن ألمّ ببخارى متفلسف يدعى الناتلى فأنزله أبوه داره ، وألحق به ابنه ليخرّجه فى العلوم العقلية والفلسفية ، وكان أول ما تلقن منه المنطق فى كتاب إيساغوجى ، ولم يكد يمضى معه فيه حتى لفته بذكائه الخارق ، وعُكس الموقف ، فكان ابن سينا

يشرح لأستاذه المسائل والدقائق . واكتفى بما عند أستاذه فى الفن وتحول يطالع الكتب والشروح حتى حذقه ومهر فيه ؛ وكذلك كان شأنه مع أستاذه فى كتاب أقليدس الخاص بعلم الأشكال الهندسية ، فإنه قرأ معه خمسة أشكال أو ستة ثم استقل بالكتاب . وصنع نفس الصنيع بكتاب المجسطى لبطليموس ، وهو فى علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك . ولم يكن الناتلى يفهم مسائل هذا الكتاب حق الفهم فكان يصورها ويشرحها له . ثم فارقه الناتلى فاشتغل بتحصيل الكتب وحده . ورغب فى علم الطب ، فقرأ كتبه المؤلفة ، ولم يلبث أن برّز فيه وأصبح مرجع المشتغلين به ، وانفتح عليه كثير من أبواب المعالجات عن طريق التجربة . وهو فى ذلك لا ينسى حظه من الدراسات الفقهية . وأصاب كل هذا النبوغ وسنه لم تتجاوز السادسة عشرة . ويقول :

« ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً ؛ فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفى هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت فى النهار بغيره . . . وكلما كنت أتحيّر فى مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فُتح لى المغلق وتيسّر المتعسّر . وكنت أرجع بالليل إلى دارى ، وأضع السراج بين يدىّ وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلىّ قوتى . ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام . " وما زلت " كذلك حتى استحكم معى جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنسانى . وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أزد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعى والرياضى . ثم عدلت إلى الإلهى وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس علىّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به . وأيست من نفسى ، وقلت هذا كتاب لاسبيل

إلى فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الورّاقين ، وبيد دلاّل مجلدٌ ينادى عليه ، فعرضه علىّ ، فرددته رد متبرم ، معتقداً أن لا فائدة فى هذا العلم ، فقال لى : اشتر منى هذا ، فإنه رخيص ، أبيعكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتريته ، فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فرجعت إلى بيتى ، وأسرعت فى قراءته ، فانفتح علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان لى محفوظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانى يومه بشىء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور — توفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م — واتفق له مرض تلجلج " تردد " الأطباء فيه ، وكان اسمى اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ؛ فأجروا ذكرى بين يديه ؛ وسألوه إحضارى ، فحضرت ، وشاركتهم فى مداواته . وترسمت بخدمته ، فسألته يوماً الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب . فأذن لى ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ؛ فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، فى بيت منها كتبُ العربية والشعر . وفى آخرَ الفقه . وكذلك فى كل بيت كتبُ علم مفرد ، فطالعت فهرس كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفظَ . ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شىء » .

وهذه القطعة تتمم سابقتها وترينا أن عقل ابن سينا نضج مبكراً، وهو هنا يقول إنه توفر نحو سنتين على قراءة المنطق والفلسفة بفروعها المختلفة، يقرأ على نفسه ويفهم بدون معلم ، وكان كلما تحير فى مسألة تردد إلى الجامع وصلى مبتهلا إلى ربه أن يفتح له ما استغلق عليه . وكان يعكف فى الليل على الكتابة

والقراءة ، وكلما غلبه النوم أو شعر بفتور تناول قدحاً من الشراب : حتى تعود إليه قوته . ولعل فى هذا ما يشير إلى ما اشتهر به من إغراقه فى اللذات مما خالف فيه سيرة الفلاسفة الأقدمين وسيرة متفلسف مثل الرازى وابن الهيثم معاصره.

ويقول إنه بلغ من شدة تعلقه بالمسائل الفلسفية ومشكلاتها أنه كان يحلم بها ، وربما وجد حل بعض المشكلات فى نومه . ومعنى ذلك أن عقله الباطن كان يشرك عقله الظاهر فى الانشغال بمسائل الفلسفة ، حتى كانت تتراءى له فى الحلم بأعيانها . وما زال مثابراً حتى حذق المنطق والطبيعيات والرياضيات ، وانتقل من ذلك إلى ما وراء الطبيعة من الإلهيات ، فاستغلقت عليه . ولم تنفتح له مسائلها بتاتاً . حتى يئس من نفسه ، وبينما هو فى هذا اليأس يقع له كتاب للفارابى ، فيحل له كل المسائل والمشاكل فى الفلسفة الإلهية . وابن سينا بهذا التصريح يطلعنا على مصدر مهم من مصادر ثقافته الفلسفية .

ويتصادف أن يمرض سلطان بخارى . ويعجز الأطباء عن شفائه ، ويشيرون عليه باستحضار ابن سينا ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ، ويستأذنه فى دخول مكتبته التى جمعها هو وآباؤه من السامانيين ، فيأذن له ، ويدخلها فيجدها مليئة بالنفائس والذخائر فى جميع الفنون والعلوم وما كتبه الفلاسفة الأوائل ، فيعب منها عبًّا . ويمتلىء منها امتلاء . وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة . ويلاحظ أن معارفه تمت فى هذا الحين . وطارت شهرته فى الناس من حوله ، فأخذوا يطلبون إليه أن يؤلف لهم بعض الكتب . يقول :

« وكان فى جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضى فسألنى أن أصنف له كتاباً جامعاً فى هذا العلم " الفلسفى " فصنّفت له المجموع .. أتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى ؛ ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى . وكان فى جوارى أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقى فقيه النفس متوحّد فى الفقه والتفسير والزهد مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول فى قريب من عشرين مجلدة ، وصنّفت له فى الأخلاق كتاباً

سميته كتاب البر والإثم . وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده. إذ لم يعِر أحداً ينتسخ منهما . ثم مات والدى وتصرفتْ بى الأحوال ، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان . ودعتنى الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج . وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيراً . وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون . وكنت على زى الفقهاء .. وأثبتوا لى مشاهرة دارّة بكفاية مثلى. ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نَسَا ومنها إلى أبِيوَرْد، ومنها إلى طوس ومنها إلى شَقَّان ومنها إلى سمْنان ومنها إلى جاجَرْم رأس حدّ خراسان، ومنها إلى جرجان، وكان قصدى الأمير قابوس، فاتفق فى أثناء هذا أخْذُ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك . ثم مضيت إلى دهستان . ومرضتُ بها مرضاً صعباً وعدت إلى جُرْجان . . وأنشأت فى حالى قصيدة ، فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصرٌ واسعى   لما غلا ثمنى عدمتُ المشترى »

وحتى الآن لم يكن ابن سينا قد ألف كتبه الفلسفية والطبية الكبيرة . ولكن سيرته الشخصية تنتهى . ويكتب لنا بقية ترجمته تلميذه أبو عبيد الجوزجانى الذى لازمه فى جورجان وكانت سنه حينئذ اثنتين وثلاثين ، وظل معه، ولم يفارقه بقية حياته . وقد ذكر لنا ابن سينا فى هذه القطعة الأخيرة أنه تقلّد بعض أعمال السامانيين . ثم دعته الضرورة إلى التحول عن بخارى . ولا يفصح عن هذه الضرورة، ولم تكن سوى استيلاء محمود الغزنوى عليها واستئصاله لشأفة السامانيين منها . وانتقل ابن سينا إلى كركانج عاصمة إمارة خوارزم . وتحدثنا كتب التاريخ أن محموداً الغزنوى طلبه من أميرها . فرفض صاحبنا وهرب فى البلاد التى سمّاها . وبذلك تخلص من قبضة الأمير الغزنوى . وما زال فى هربه وفراره حتى وصل إلى جرجان والتقى فيها بتلميذه أبى عبيد . ولم يشأ ابن سينا أن يعرفنا بهذه التفاصيل السياسية . وظل بقية حياته ينتقل من بلاط أمير فى إيران إلى بلاط أمير آخر مشتغلا بالشئون السياسية وتدبير أمور الإمارات حيناً . وبالتعلم والتأليف والتصنيف حيناً آخر ، حتى لَبّى نداء ربه فى همذان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م .

٤

متفلسفة مختلفون

ما بين أيدينا من أخبار المتفلسفة وخاصة المتطببين منهم يدل على أن غير واحد من جهابذتهم عنى بترجمة حياته وحكاية سيرته ، أخذاً بسنة جالينوس فى القديم وما قدمنا من أمثلة عند حنين بن إسحق ومحمد بن زكريا الرازى وابن الهيثم وابن سينا .

وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمتين شخصيتين لعلى بن رضوان الطبيب المصرى وعبد اللطيف البغدادى ، والأول أشهر أطباء مصر فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولد فى الجيزة لرجل فقير كان يعمل فرّاناً ، ولما رأى فى ابنه معالم النجابة عُنى به ، فأسلمه إلى بعض المعلمين ، ولم يلبث أن نقله إلى القاهرة وهو لا يزال فى العاشرة ، ليكمل فيها تعلمه . وفى سن الرابعة عشرة وجد فى نفسه ميلا شديداً إلى تعلم الطب والفلسفة ، فعكف عليهما . يقول ابن رضوان :

« ولم يكن لى مال أنفق منه ، فلذلك عرض لى فى التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم ، ولم أزل كذلك وأنا فى غاية الاجتهاد فى التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين ، فإنى اشتهرت فيها بالطب . وكفانى ما كنت أكسبه بالطب ، بل كان يتفضل عنى إلى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتى أملاكاً فى هذه المدينة .. وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، وأغيّرها فى كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقرير الذى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أتصرف كل يوم فى صناعتى بمقدار ما يغنى من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء

أقصد به حفظ الصحة . وأجتهد فى حال تصرفى فى التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج . وأجعل قصدى فى كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة . ولا بد أن يحصل مع ذلك كسب ما يُنفق، فأنفق منه على صحة بدنى وعمارة منزلى نفقة لا تبلغ التبذير ، ولا تنحط إلى التقتير ، وتلزَم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه التعقل فى كل وقت ، وأتفقد آلات منزلى ، فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته ، وما يحتاج إلى بدل بدّلته . . وأتعرّف ما يمكننى تعريفه من الأمور المزمعة وآخذ له أهبته، وأجعل ثيابى مزينة بشعار الأخيار والنظافة وطيب الرائحة . وألزم الصمت وكف اللسان عن معايب الناس، وأجتهد أن لا أتكلم إلا بما ينبغى . وأتوقى الأيمان ومثالب الآراء، فأحذر العُجْبَ وحب الغلبة، وأطرح الهمّ الحرصىّ والاغتمام ، وإن دهمنى أمر فادح أسلمت فيه إلى الله تعالى ، وقابلته بما يوجبه التعقل من غير جُبن ولا تهور . ومن عاملته عاملته يداً بيد ، لا أسلف ولا أتسلّف إلا أن أضطرّ لذلك، وإن طلب منى أحد سلفاً وهبت له ولم أردْ منه عوضاً. وما بقى من يومى بعد فراغى من رياضتى صرفته فى عبادة الله سبحانه . . وأتدبر مقالة أرسطاليس فى التدبير وآخذ نفسى بلزوم وصاياه بالغداة والعشى . وأتفقد فى وقت خلوتى ما سلف فى يومى من أفعالى وانفعالاتى ، فما كان خيراً أو جميلا أو نافعاً سررت به ، وما كان شرّاً أو قبيحاً أو ضارّاً اغتممت به ، ووافقت نفسى أن لا أعود إلى مثله » .

ثم يذكر لنا ابن رضوان الكتب الفلسفية والطبية التى كان يعنى بقراءتها ويستهدى بها ، ولا يسرد علينا فهرست مؤلفاته إنما يسردها ابن أبى أصيبعة . وواضح مما نقلناه من سيرته أنه عُنى فيها بالحديث عن سلوكه . وهو سلوك فاضل يقوم على الاعتدال فى كل شىء ، ومن طريف ما ذكره أنه كان يعد السلف تلفاً غير راجع ، وأنه كان حين يُسلف يظن نفسه واهباً ولا ينتظر بعد ذلك الرجوع فى هبته . ولعل من الغريب أن هذه السيرة المعتدلة تخالف كل المخالفة ما عرف عنه فى مؤلفاته من تشنيعه على سابقيه ومعاصريه ، أمثال حنين بن

إسحق ومحمد بن زكريا الرازى من السابقين وابن بطلان البغدادى من المعاصرين؛ ولكن لعل هذا الخلق الجامح فى تأليفه لم يكن خلقه فى سلوكه وحياته بين الناس.

وسيرة عبد اللطيف البغدادى التى نقلها عنه ابن أبى أصيبعة لا تتجه هذا الاتجاه من حيث حكاية السلوك الشخصى ، وإنما تتجه إلى حكاية تعلمه وتنقله فى البلاد ، فقد رحل إلى الموصل ، ومنها إلى الشام ، حيث حاول الاتصال بصلاح الدين الأيوبى ورجاله من أمثال القاضى الفاضل ، وتوجه إلى مصر ، ثم عاد إلى الشام ، واتصل بعد وفاة صلاح الدين بابنه العزيز ، ودخل مصر فى ركابه ، ثم تحول إلى الشام وتغلغل فى آسيا الصغرى ، ورجع أخيراً إلى حلب.

وهو يقص علينا ذلك كله منوهاً بفضله وعلمه ومعرفته فى الطب وغيره ، ويبدأ حديثه أو سيرته بأنه ولد فى بغداد بدرب الفالوذج سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١م وقد أخذه أبوه بالتعلم منذ نعومة أظفاره ، فسمع الحديث النبوى ، ونال فيه إجازات مختلفة ، وأثناء ذلك حفظ القرآن الكريم وفصيح ثَعْلب ومقامات بديع الزمان والحريرى وديوان المتنبى ومختصراً فى الفقه وآخر فى النحو. واختلف فى دروس العلم الأخير إلى ابن الأنبارى وغيره ، ويقول إنه أكبّ على كثير من أمهات اللغة والنحو ومشكل القرآن وكتب الغزالى ، ثم انتقل إلى كتب ابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية ، ولم يزل على ذلك إلى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م فتحول عن بغداد إلى الموصل . وهناك بدأ الاشتغال بالتدريس ، فأعجب به الناس — كما يقول — لسعة محفوظه وسرعة خاطره . وظل على ذلك عاماً ، ثم دخل دمشق ، وفيها ناظر العلماء ، وغلبهم بحجة لسانه ، وألف بعض كتب فى الحديث والنحو وعلم الكلام .

ويَحكى أنه توجه بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكا ، وهو يحاصرها ، محاولا أن يستردها من أيدى الصليبيين . وتعرّف على القاضى الفاضل؛ يقول : « ودخلنا عليه فرأيت شيخاً ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه

فى إخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة أعضائه ». وسأله القاضى الفاضل عن مقصده ، فقال له إنى أريد مصر ، فكتب له ورقة صغيرة إلى وكيله بها ، وكان ابن سناء الملك الشاعر المصرى المشهور ، فأكرمه وأنزله داراً جاءته فيها الهدايا والصلات من كل جانب . ويقول إنه كان يريد أن يلتقى بمصر بثلاثة أشخاص من المتفلسفة هم ياسين السيمائى وموسى بن ميمون اليهودى وأبو القاسم الشارعى ، والتقى بهم ، ولم يعجب بأولهم إذ وجده مشعبذاً ، أما موسى فوجده فاضلا لا فى الغاية ، وقرأ له كتاباً فى الطب ، وقال إنه نقله عن جالينوس وغيره دون زيادة ، وأما أبو القاسم فوجده يسير سيرة الحكماء العقلاء لا يشغله شىء عن طلب الفضيلة ، قيّما بكتب القدماء وما كتبه الفارابى ، ويزعم أنه كان إذا تناقش معه غلبه بقوة الجدل وفَضْل اللَّسَن ، ويغلبه أبو القاسم بقوة الحجة وظهور المحجة.

ثم عاد إلى القدس وألم بصلاح الدين ، ووصفه ، فقال : « رأيت ملكاً عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة ، قريباً بعيداً ، سهلا مجيباً ، وأصحابه يتشبهون به ، ويتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: "ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ" . وأول ليلة حضَرْتُه وجدت مجلساً حافلا بأهل العلم ، يتذاكرون فى أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ فى كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه فى ذلك . . وكان مهتمًّا فى بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسّى به جميع الناس الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء ، حتّى العماد الكاتب والقاضى الفاضل " وزيراه " ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر » .

وقرر له صلاح الدين وأولاده راتباً بدمشق ، فمكث بها سنوات مكبًّا على الاشتغال بالعلم والتحصيل وإقراء الناس بالجامع ، حتّى أتيح له أن يعود إلى مصر مع سلطانها العزيز سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م؛ فلزم الشيخ أبا القاسم الشارعى وأجرى عليه السلطانُ ما يكفيه ، وكان يقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ عليه الطب وغيره ، ويرجع

آخر النهار إلى الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفى الليل يشتغل بالقراءة والتأليف . وحدَث فى مصر وباء وغلاء فاحش فوصفه ، ووصف آثار الأقدمين ومختلف الشئون الاجتماعية والعمرانية بمصر ، وذلك فى رسالته المشهورة التى سماها « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وتحدث عما تختص به مصر من النبات والحيوان حديث العالم المتفلسف والطبيب الحاذق .

ولما ملك مصر السلطان العادل توجه إلى القدس وأقام بها مدة ، يشتغل عليه الناس فيها بكثير من العلوم ، وصنف غير كتاب ، ثم زايلها إلى دمشق سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وأقبل عليه التلاميذ من كل حدَب يأخذون عنه مختلف العلوم وخاصة علم الطب الذى برع فيه ، وقدصنف فيه كتباً كثيرة حتى عُرف به. ثم سافر إلى حلب وقصد بلاد آسيا الصغرى وعاد منها إلى حلب ثانية وهو دائم التأليف والتصنيف ، مقبل على التدريس وإفادة الطلاب والتلاميذ .

وإنما لخصناهذه السيرة تلخيصاً ، وهى طويلة ، فليرجع إليها فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة من أراد . وحين ننعم النظر نجد كثيراً من تراجمه تُنْقَل أخبارها مباشرة عن أصحابها ، فهى أشبه بتراجم شخصية وإن لم تكتب فى شكل سِيَرٍ ذاتية .

ومن المحقق أن كثيراً من تراجم المتفلسفة الشخصية فُقدت وضاعت فى الطريق ، ومن طريف ما أثر عنهم ترجمة السموءل بن يحيى المغربى لنفسه ، وكان يهودياً فأنار الله بصيرته واعتنق الإسلام ، وهو يقص علينا فى ترجمته كيف بزغ له نور الحق وأضاء جوانبَ نفسه فأسلم وجهه لله ، ويستهلها بتعريفنا بأبيه وأنه كان من مدينة فاس بالمغرب ومن أعلم أهل زمانه بعلوم التوراة واللسان العبرى ، وترك هذه المدينة إلى بغداد ، وفيها تزوج من أمه اليهودية. وشغله أبوه فى أول نشأته بالكتابة بالقلم العبرى وعلوم التوراة وتفاسيرها حتى إذا بلغ الثالثة عشرة اختلف إلى معلمى الحساب والزيجات والطب والحساب الديوانى وعلم المساحة والجبر والهندسة وغير ذلك من العلوم الرياضية ، وشُغف أكثر ما شغف بالطب وفنون

العلاج ، ويقول إنه اخترع أدوية لم يسبق إليها .

ثم يذكر أنه قبل اشتغاله بهذه العلوم كان معنياً بالحكايات والأسمار والخرافات ؛ ثم مال إلى قراءة كتب التاريخ من مثل تجارب الأمم لابن مسكويه والطبرى ، وكانت تمر به أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وما ظهر على يده من المعجزات وخصه الله به من الكرامات ، وحباه به من النصر والتأييد فى الغزوات . ودفعه ذلك إلى تتبع سيرة الرسول ، فعرف أنه نشأ يتيما ضعيفاً ، على خلق عظيم ، وبعث فى قومه ، فجاهدهم ودعاهم بالموعظة الحسنة ، وهم يعادونه ويعاندونه ، حتى أذن له فى الهجرة إلى غير دارهم ، فهاجر إلى المدينة ، ومن هناك أخذت أشعة الإسلام تنطلق فى دروب الجزيرة العربية ، وفتحت مكة ، ودخل العرب فى دين الله أفواجاً ، ثم انساحوا يفتحون البلاد ، فهزموا فارس والروم .

ويقول السموءل إن اطلاعه على هذه السيرة النبوية الذكية هو الذى جعله يؤمن بالإسلام ، وكان مما بعثه على هذا الإيمان القرآن الكريم وما يتضمن من بلاغة فوق مستوى البشر . وأخذ يراجع نفسه ، متأملاً فى اختلاف الناس فى الديانات وطالع الفصل الخاص ببِرْزَوَيْه فى كتاب كليلة ودمنة ، وقد سبقت الإشارة إليه ، وهداه هذا الفصل إلى تحكيم عقله ، فرأى الناس إنما يؤمنون بعامة الأنبياء عن طريق ما يرويه السلف عنهم رواية تواتر ، وأن الأنبياء فى ذلك متساوون ، فما دمنا قد سلمنا بالنبوة ، وصدقنا نبياً وجب أن نصدق الآخرين . يقول :

« لا يجوز للعاقل أن يصدق واحداً ويكذب واحداً من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، لأنه لم ير أحدهم ، ولا شاهد أحواله إلا بالنقل ، وشهادة التواتر موجودة لثلاثتهم ، " موسى وعيسى ومحمد" فليس من العقل والحكمة أن نصدق أحدهم ونكذب الباقيين ، بل الواجب عقلا أن نصدق الكل ، فأما تكذيب الكل فإن العقل لا يوجبه أيضاً ، لأنا إنما نجدهم أتوا بمكارم الأخلاق وندبوا إلى الفضائل ونهوا عن الرذائل ، ولأنا نجدهم قد ساسوا العالم سياسة بها صلاح أهله . فصح

عندى بالدليل القاطع نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام وآمنت بهما » .

ثم يقص رؤيا رأى فيها أحد أنبياء بنى إسرائيل ، وفيها أقرأه آيات من التوراة تشير إلى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونام عقبها ، فرأى صاحب الرسالة المحمدية يدعوه إلى الإسلام ، فدخل فى دين الله وهو شديد الفرح والسرور بما انكشف له من الهداية . وقد توفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

ومن غير شك وراء هؤلاء المتفلسفة الذين عُنوا بترجمة حياتهم ممن ذكرناهم كثيرون سَرَدُوا أخبارهم وقصّوا حياتهم ، ولكن أكثر ذلك سقط من يد الزمن ولم تبق إلا هذه السِّيَرُ القليلة التى تحدثنا عنها هذا الحديث المجمل .

الفصل الثانى

تراجم علمية وأدبية

١

علماء وأدباء يتحدثون عن أنفسهم

لعل أقدم حديث لأدباء العرب عن أنفسهم هو ما أُثِرَ عن شعراء العصر الجاهلى فى فخرهم وحماستهم ، وهو حديث شعراء لا يراد به إلى حكاية الواقع تماماً ، بل تدخله المبالغة والتهويل ، وظل ذلك غالباً على الشعراء فى العصور الإسلامية المختلفة .

وحينما أخذ العرب يدوّنون أخبار شعرائهم وأدبائهم وعلمائهم كانوا ينقلون عنهم مباشرة كثيراً مما يدوّنونه ، على نحو ما نعرف عن الأصمعى مثلا ، فإن كتب الأدب تتناقل عنه أخباراً مختلفة مع الرشيد ووزرائه وأدباء عصره وعلمائه. وإذا تصفحنا كتاب تراجم مثل الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وجدنا كثيراً مما يقصّه عن الشعراء والمغنين يُنْقَل عن أفواههم ، وخير مثل لذلك ترجمة إبراهيم الموصلى مغنى الرشيد المشهور ، فإنه يروى أخباره فيها عن ابنه إسحق ، وكثير منها مما حدّثه به أبوه .

ونفس كتابات الأدباء فى العصر العباسى كثيراً ما تتضمن أخبارهم وبعض وقائع حياتهم ، ولعل الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أكثر من عُنِى حتى عصره بتصوير نفسه فى كتاباته ، بحيث نستطيع أن نستخرج من كتبه ورسائله أكثر الخيوط التى ألفتْ نسيج حياته من الوجهتين الثقافية والمعاشية . ويجرى معه فى هذا الطريق ممن كانوا يعجبون به وبأسلوبه أبو حيان التوحيدى المتوفى سنة

٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إذ كان يعانى غربة فى أهل زمانه ، ولم يجد من بينهم من يعرف فضله وعلمه وأدبه، ويقدره حق قدره، فتولى ساخطاً مغضباً، يقصّ قصته، من لقائه للوزراء وغيرهم ، ممن وضعوه دون منزلته ، وأخروه عن مرتبته ، وفى مقدمتهم الوزيران المشهوران : ابن العميد والصاحب بن عباد، فألف فيهما كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، روى فيه تجربته معهما، وهى تجربة قاسية، تحوّل وصفُها عنده إلى سياط من الكلام، تصور محنته فيهما وسوء حظه . وكان على ما يظهر متعجرفاً ثقيل الروح ، فازورّ عنه الوزيران ونبذه الناس ، وتصور ذلك رسالته « فى الصداقة والصديق » يقول :

« فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق، والله لربما صلّيت فى المسجد فلا أرى إلى جنبي من يصلّى معى ، فإن اتفق فبقّال أو عصّار أو ندّاف أو قصّاب ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه وأسكرني بنتْنه، فقد أمسيت غريب النِّحْلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملا للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً ما لا بد من حلوله ، فشمسُ العمر على شفَا، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول » .

وبلغ من سخطه على الناس أن أحرق كتبه فى أواخر حياته، وكتب إليه بعض أصحابه يعذله على صنيعه ، فأجابه برسالة طويلة ، ومن قوله فيها :

« إنى فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً مُنيباً ، فشق علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها .. وعِيانى منهم فى الحياة هو الذى يحقق ظنى بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن

يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم » . ومع ذلك فقد بقيت لنا بعض كتبه ، وهى تفيض بهذه الإشارات إلى حاله التعسة .

وقد أخذت فى عصره تكثر كتب الجغرافيا والرحلات ، وهى تتضمن كثيراً من أخبار أصحابها وحوادثهم فى البلدان المختلفة التى كانوا يشاهدونها ويلمون بها واصفين أو راحلين. ويجمل لنا المقدسىّ فى أوائل كتابه « أحسن التقاسيم» ما عاناه فى رحلاته ، حتى كان يتنكر كثيراً ويدخل فى غير طائفة من الطوائف الإسلامية ، يقول :

« لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكُدْية "الشحاذة" وركوب الكبيرة ، فقد تفقهت وتأدّبت وتزهدت وتعبدت . وفقّهت وأدّبت ، وخطبت على المنابر ، وأذّنت على المنائر ، وأممت فى المساجد ، وذكرت فى الجوامع ، واختلفت إلى المدارس ، ودعوت فى المحافل ، وتكلمت " ناظرت " فى المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد . وطُردت فى الليالى من المساجد ، وسحت فى البرارى ، وتهت فى الصحارى ، وصَدقتُ فى الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصاحبت عُبّاد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملتُ على رأسى الزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق ، وقُطع على قوافلنا الطرق ، وخدمتُ القضاة والكبراء ، وخاطبتُ السلاطين والوزراء ، وصاحبت فى الطرق الفُسّاق ، وبعتُ البضائع فى الأسواق ، وسجنتُ فى الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس ، وعاينت حرب الروم فى الشوانى " السفن الحربية " وضرب النواقيس فى الليالى .. وكم نلتُ العز والرفعة ، ودُبّر فى قتلى غير مرة ، وحججت وجاورت ، وغزوت ورابطت . . وكُسيت خِلَع الملوك وأمروا لى بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات . . ورُميتُ بالبدَع واتُّهمت بالطمع » .

وكل هذه تجارب صادفته فى رحلاته الجغرافية . وكثيراً ما يقف

الجغرافيون والرحَّالة فى كتبهم ، فيصورون تصويراً تاماً ما يصادفهم من أحداث الحياة ومايلم بهم من خبراتها وغرائبها . ورحلتا ابن جُبَير وابن بطُوطة من أطرف الرحلات التى تشتمل على مادة بديعة فى هذه الجوانب ، وخاصة أنهما ساقا رحلتيهما فى شكل مذكرات يومية . ومن مصنفى الأندلس الذين ضمنوا مؤلفاتهم تجاربهم وخبراتهم ابن حَزْم المتوفى سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م وربما كان أكبر عقلية إسلامية ظهرت هناك ، وله مؤلفات كثيرة فى الفقه وأصوله وفى الملل والنحل وفى التاريخ والسير وفى الفلسفة ومراتب العلوم والمنطق والأخلاق والطباع . وقد نُشرت له كتب ورسائل مختلفة يتداولها الناس ، وهو يصارحنا فى كثير من جوانبها بخلُقه وتجاربه ، غير ساتر لنقيصة فيه ، وأهم كتاب حَمَّله اعترافاته والبوح عن نفسه كتاب « طوق الحمامة فى الألفة والألاّف » وهو يَعْنِى بالألفة المحبة ، وقد بحثها من جميع أطرافها - بحثها فى أصولها وصفاتها وأعراضها ، ولم يطلق الكلام إطلاقاً ، بل عرضه على التجربة والخبرة فى نفسه وسكان قرطبة لعصره من أمراء وعلماء وأدباء . ويهمنا ما اعترف به عن نفسه ، فمن ذلك أننا نجده فى أثناء حديثه عن الحب وأنه إذا أحب صفة فى محبوب له لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ، يقول : « دعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه ، وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره ألبتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله » ، ويقول : « لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى . لأنى رُبيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب . وهن علَّمننى القرآن وروَّيننى كثيراً من الأشعار ودرَّبننى فى الخط ، ولم يكن وكْدى " غرضى " وإعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصلُ

ذلك غيرةٌ شديدة طبعت عليها وسوء ظن فى جهتّهن فُطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل » .

ولعل القارئ يعرف أن ابن حزم نشأ فى بيت مترف ، فقد كان أبوه من وزراء الأمويين فى قرطبة، ومن أجل ذلك نشأ هذه النشأة الطريفة فى الحريم وبين النساء، وكن حينئذ مثقفات، فربّينه وقُمْنَ على تعليمه وقام هو على دراستّهن ومعرفة طباعهن والوقوف على أخبارهن مما أتاح له فرصة واسعة لوصفهن فى هذا الكتاب وإيراد طائفة من حكايتهن هن ونساء قرطبة الأخريات اللائى كن يتحدثن عن حُبّهن . ونراه يقول فى باب الوصل :

« ولقد جَرّبْتُ اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها . فما للدنو من السلطان ولا للمال المستفاد ولا للوجود بعد العدم، ولا للأوبة بعد طول الغيبة ، ولا للأمن بعد الخوف ولا للتروح على المال، من الموقع فى النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر حتى يتأجج الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غِبّ القَطْر ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السَّجْسَج ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوّار ولا تأنق القصور البيض قد أحدقن بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه وحمدت غرائزه » . ويقول فى باب الهجر :

« حضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتّهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذلّ من موقف محب هَيْمان، بين يدى محبوب غضبان، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنيّة ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذلّ من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع . وأتحلّل بلسانى ،

وأغوص على دقائق المعانى ببيانى ، وأفنّن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى » .

ويتحدث عما يصيب المحبين من البين الذى يُعَدّ شَجَىً فى القلب وغُصَّة فى الحلق ، ويعرض لبين الموت الذى لا يرجى للمحبوب بعده إياب ، وهو القرحة التى لا تبرأ والوجع الذى يتجدد ، يقول :

« دعنى أخبرك أنى أحدُ من دُهى بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لى . . كانت أمنية المتمنى وغاية الحسن خَلقاً وخُلقاً وموافقة لى ، وكنت أبا عُذْرِها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار : واخترمتها الليالى ومَرّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنّى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها " بكائها " . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن . . وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنستُ بسواها » .

وما نزال ننتقل فى الكتاب بين اعترافات ابن حزم عن نفسه ، ومن ذلك ما يرويه عن حب عفيف له بفتاة تعلقها قلبه وهو لا يزال فى ميْعة الصبا ، فتمنعت عليه ، ولم يزده ذلك بها إلا تعلقاً وحباً ، يقول :

« وإنى لأخبر عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جاريةً نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مُسبلة السِّتْر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذّة النفار ، لا توجّه الأراجى "جمع رجاء" نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرّس للأمل لديها .. على أنها كانت تحسنَ العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها وأحببتها حباً

مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شيء ألبتة . . وإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره فى لطف حركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً » .

وهذه الاعترافات فى كتاب طوق الحمامة تجعله طرفة حقيقية ، إذ قلما يعترف العرب فى كتبهم بوقائعهم اليومية على هذا النحو الذى نجده عند ابن حزم . على أن هذا الكتاب ليس ترجمة شخصية كاملة لصاحبه ، فإنه إنما يسوق لنا فيه جانباً واحداً من حياته هو جانب حبه ، وكثيراً ما يتحدث عن وقائع لبعض المحبين دون أن يسميهم ، وأكبر الظن أنه هو نفسه صاحب هذه الوقائع ، وخاصة أنه يسوق دائماً وراءها أشعاراً تصور حالة المحب أو المحبوب فى الواقعة .

ولا نلتقى حتى عصر ابن حزم بترجمة شخصية كاملة لأديب ولا لعالم ، وربما وجدت تراجم لهم ، ولكنها لم تصل إلينا ، وأول ترجمة حفظتها لنا الكتب ترجمة على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م وهو مؤرخ اشتهر بكتابين أحدهما فى التاريخ العام ويسمى « مشارب التجارب » وهو ذيل على تاريخ ابن مسكويه ، والثانى فى تاريخ الشعراء ويسمى « وشاح الدُّمْية » وهو ذيل على دُمْية القَصْر للباخرزى ، وهى بدورها ذيل على كتاب اليتيمة للثعالبى .

وقد ترجم البيهقى لنفسه فى كتابه « مشارب التجارب » وهو مفقود ، إلا أن ياقوت نقل لنا فى كتابه « معجم الأدباء » هذه الترجمة . ونراه فى مطلعها يرفع نسبه إلى الفاكه بن ثعلبة الأوسى ، ويستمر فيصل به إلى آدم ! ويقول إنه ولد سنة ٤٩٩ هـ/١١٠٥ م فى قصبة السَّابْزَوار من ناحية بَيْهَق ، وهى من ضواحى نَيْسَابور

فى خراسان، وقد أسلمه أبوه إلى الكتّاب، ثم رحل به إلى قرية شِشْتِمْد من قرى تلك الناحية حيث كان له ضياع بها ، وفيها أكمل دراسته النحوية واللغوية ، وحفظ أشعار الحماسة والمعلقات والمتنبي ثم انتقل إلى نيسابور فى سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وعكف على دروس العلماء بها من لغويين ، ونحويين ، ومحدّثين ، ومتكلمين . ويحصى لنا الكتب التى درسها فى كل فن . وفى سنة سبع عشرة وخمسمائة مات أبوه فانتقل إلى مرْو يتابع دراسته ، وتزوج بها ، وفى سنة ٥٢١ هـ عاد إلى نيسابور : وأصهر إلى واليها ومشرف مملكتها، وصار مشدوداً بوثاق الأهل والأولاد سنين : وتولى قضاء بيهق سنة ٥٢٦ هـ ثم تركها إلى الريّ وتعلق بدراسة الحساب والجبر والمقابلة . وتحول إلى بخارى فى خراسان ثم إلى نيسابور ثم إلى سَرَخس وهو فى أثناء ذلك يدرس على العلماء . ويتحول إلى بيهق ثم إلى نيسابور حيث أخذ يدرس للطلاب فى مساجدها، وظل على ذلك من سنة ٥٣٧ هـ إلى سنة ٥٤٩ هـ إذ ارتحل عنها إلى بيهق لزيارة والدته، وقد مات فى تلك السنة كما مات ابنه أحمد . وهنا نراه يذكر ثَبَتَ تصانيفه، وقد بلغت نحو سبعين كتاباً، أكثرها فى الشريعة وشروح الأشعار .

ومن الأدباء العلماء الذين ترجموا لأنفسهم فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) العماد الأصبهانى ، وأودع ترجمته كتابه « البرق الشامى » وهو مفقود ، غير أن ياقوت احتفظ لنا فى معجمه بخلاصة هذه الترجمة . وممن ترجموا أيضاً لأنفسهم فى هذا القرن ابن الجوزى ، ولم يفرد ترجمته برسالته ، وإنما أتى بها عرضاً فى رسالة سماها « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » وهى نصيحة موجهة إلى ابنه ، ولكنه ضمنها غير قليل من أخباره ومؤلفاته ، ولعل من الخير أن نقف عندها وعند صاحبها قليلا .

٢

ابن الجوزى

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م وهو مؤرخ جليل، له فى التاريخ كتاب المنتظم وهو مطبوع ، وقد تناولت مؤلفاته أكثر علوم عصره ، وشهرته إنما ترجع إلى أنه كان فقيهاً واعظاً ، إذ كان له أثر بالغ فى وعظ الناس بمسقط رأسه « بغداد » وإرشادهم ، وقد رأى ابن جبير صاحب الرحلة المشهور مجلساً من مجالسه ، فراعه روعةً شديدة حتى قال فيه :

« آية الزمان ، وقُرَّةُ عيْنِ الإيمان ، رئيس الحنبليّة، والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حَلْبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة ، مالك أزمَّة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر . فأما نظمه فرضىّ الطباع ، مِهْيَارى الانطباع ، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بِقُسٍّ وسَحْبان» ثم يصف موعظة له ويقول إنه بعد أن فرغ منها « أتى برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . . فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر . ونعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه » .

وابن الجوزى يبدأ رسالته « لفتة الكبد » بأنه وجد فى ابنه أبى القاسم توانياً عن الجد فى طلب العلم فكتب له هذه الرسالة يحثه بها، ويحركه على سلوك طريقه فى

كسب المعرفة ، وقد قسمها فصولا ، تحدث فى الفصل الأول عن العقل وأنه يهدى صاحبه إلى أنه مكلف أمام ربه بفرائض ينبغى أن يؤديها ، ويقفه على فضائل ينبغى أن يتحلى بها ، وليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل . ودعاه فى الفصل الثانى إلى دراسة الفقه حتى يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة والزكاة والحج ، وحتى يندفع بعد ذلك فى الترقى إلى الفضائل مستعيناً بربه وطاعته لاجئاً إلى توفيقه ورعايته . وفى الفصل الثالث يسوق له من أحواله هو ما قد يرشده فى دنياه، وهنا يفيض فى الترجمة لنفسه ، يقول :

« وإنى لأذكر لك بعض أحوالى لعلك تنظر إلى اجتهادى، وتسأل الموفق لى ، فإن أكثر الإنعام علىّ لم يكن بكسبى ، وإنما هو من تدبير اللطيف بى ، فإنى أذكر نفسى ولى همة عالية ، وأنا فى المكتب ابن ست سنين، وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلا وافراً فى الصغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أنى لعبت فى طريق مع الصبيان قط ، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً ، حتى إنى كنت ، ولى سبع سنين أو نحوها ، أحضر رَحبة الجامع ،فلا أتخير حلقة مشعبذ ، بل أطلب المحدِّث ،فيتحدث بالسير ، فأحفظ جميع ماأسمعه ، وأذهب إلى البيت فأكتبه . ولقد وفق لى شيخنا أبو الفضل بن ناصر رحمه الله ، وكان يحملنى إلى الشيوخ ، فأسمعنى المسند " مسند ابن حنبل" وغيره من الكتب الكبار وأنا لا أعلم ما يراد منى ، وضبط لى مسموعاتى إلى أن بلغتُ، فناولنى ثبتها ،ولازمته إلى أن توفى رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث والنقل . ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا فى زمن الصغر آخذ جزءاً ، وأقعد حَجرة " ناحية" من الناس إلى جانب الرَّقة ، فأتشاغل بالعلم. ثم ألهمت الزهد فسردت الصوم ، وتشاغلت بالتقلل من الطعام ، وألزمت نفسى الصبر ، فاستمرت . وشمرت ولازمت " العلماء" وعالجت السهر ، ولم أقنع بفن من العلوم ، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث ، وأتبع الزهاد . ثم قرأت اللغة ولم أترك أحداً ممن يروى ويعظ ولا غريباً يقدم إلا وأحضره ، وأتخير الفضائل .

وكنت إذا عرض لى أمران أقدم فى أغلب الأحوال حقّ الحق . فأحسن " الله " تدبيرى وتربيتى ، وأجرانى على ما هو الأصلح لى ، ودفع عنى الأعداء والحساد ومن يكيدنى ، وهيأ لى أسباب العلم ، وبعث إلىّ الكتب من حيث لا أحتسب ، ورزقنى الفهم وسرعة الحفظ والخطّ وجودة التصنيف ، ولم يعوزنى شيئاً من الدنيا ، بل ساق إلىّ من الرزق مقدار الكفاية وأزيد ، ووضع لى من القبول فى قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامى فى نفوسهم فلا يرتابون بصحته وقد أسلم على يدى نحو مائتين من أهل الذمة . ولقد تاب فى مجالسى أكثر من مائة ألف .. ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نَفَسى من العَدْو لئلا أسبق .. وها أنت قد ترى ما آلت حالى إليه، وأنا أجمعه لك فى كلمة واحدة، وهى قوله تعالى " واتقوا الله ويعلّمكم الله " فانتبه يا بنى لنفسك واندم على ما مضى من تفريطك »

وتتعاقب النصائح وفى أثنائها يسوق ابن الجوزى أخباره ، فمن ذلك قوله :

« اعلم يا بنى أن أبى كان موسراً وخلّف ألوفاً من المال ، فلما بلغت دفعوا لى عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لى : هذه التركة كلها ، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم، وبعت الدارين وأنفقت ثمنهما فى طلب العلم، ولم يبق لى شيء من المال . وما ذلّ أبوك قط ولا خرج يطوف فى البلدان كغيره من الوعاظ ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً ، وأموره تجرى على السداد " ومَنْ يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب" » .

وعلى هذا النحو نطلع فى هذه الرسالة على نشأة ابن الجوزى ونعرف مدى إكبابه على الدرس والتحصيل وما أخذ به نفسه منذ صغره بالفضيلة والسيرة الزكية ، ينشد ما عند الله ، حتى أصبح واعظاً ، وأصبح لوعظه تأثيره فى النفوس لأنه يصدر فيه عن عقيدة صحيحة . وليس هذا كل ما نجده فى الرسالة، فنحن نجد فيها أيضاً بعض مصنفاته ومؤلفاته إذ يقول :

« وقد علمتَ يا بنى أنى قد صنفت مائة كتاب ، فمنها التفسير الكبير

عشرون مجلداً ، وتهذيب المسند عشرون مجلداً ، وباقى الكتب من كبار وصغار تكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر . كفيتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهمم فى التأليف ، فعليك بالحفظ ، وإنما الحفظ رأس المال ، والتصرف ربح ، واصدقْ فى الحالين فى الالتجاء إلى الحق سبحانه؛ فراع حدوده ، قال الله تعالى : " إن تنصروا الله ينصركم " " فاذكرونى أذكركم " " وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم " . . وعليك بكتاب منهاج المريدين فإنه يعلمك السلوك فاجعله جليسك ومعلمك ، وتلمَّحْ كتاب صيد الخاطر فإنك تقع بواقعات تصلح لك أمر دينك ودنياك ، وتحفَّظْ كتاب جنة النظر ، فإنه يكفى فى تلقيح فهمك للفقه ، ومتى تشاغلت بكتاب الحدائق أطلعك على جمهور الحديث ، وإذا التفت إلى كتاب الكشف أبان لك عن مستور ما فى الصحيحين " صحيحى البخارى ومسلم " من الحديث ، ولا تتشاغلن بكتب التفسير التى صنفتها الأعاجم ، وما ترك المغنى وزاد المسير لك حاجة فى شىء من التفسير ، وأما ما جمعته لك من كتب الوعظ فلا حاجة لك بعدها إلى زيادة أصلا » .

وبذلك يضيف ابن الجوزى إلى تعريفنا بنشأته وتربيته وسيرته تعريفنا ببعض كتبه فى التفسير والحديث والفقه والوعظ ، وقد نُشر له فى عصرنا غير كتاب ، وهو حقًّا أحد العلماء الأفذاذ الذين أنجبتهم بغداد فى العصر العباسى الثانى .

ونمضى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فتكثر تراجم الأدباء والعلماء ، إذ تصبح الترجمة الشخصية سنَّةً متبعة بين كثيرين منهم، وخاصة من ألفوا فى كتب التراجم العامة ، مثل ابن سعيد صاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » فقد ضمَّن هذا الكتاب ترجمته وترجمة أبيه وجده وطائفة من أسرته ، وربما كان خيرُ من أفرد لنفسه ترجمة فى هذا القرن أبا شامة .

٣

أبو شامة المقدسى الدمشقى

هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وهو محدث ومؤرخ كبير ، اشتهر فى عصرنا بكتابه « الروضتين فى تاريخ الدولتين» دولة نور الدين ودولة صلاح الدين الأيوبى ، وهو خير من أرخ لهاتين الدولتين ، وأتبع هذا التاريخ بذيل له ترجم فيه لرجال القرنين السادس والسابع للهجرة ، وحين تحدث عن سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ومن توفّوا فيها ذكر أنه ولد فى تلك السنة . ولم يكتف بذلك ، بل ترجم لنفسه ترجمة ضافية ذكر فى أولها أنه عُرف بأبى شامة لأنه كان به فعلا شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ، وقال إنه ولد بدَرْب الفواخير بدمشق ، وأصل جده أبى بكر من بيت المقدس . وأفاض فى الحديث عن آبائه وأعمامه ، ثم أخذ يتحدث عن نفسه بضمير الغائب ، فقال إنه بدأ يحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ فى معرفة القراءات السبع والفقه والعربية والحديث وأيام الناس ، وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ثم حج فى السنة التى بعدها أيضاً ، ثم سافر إلى بيت المقدس ورحل منه إلى الديار المصرية سنة ست وعشرين وأخذ عن شيوخها فى مصر والقاهرة ودمياط والإسكندرية . وعاد إلى دمشق عاكفاً على الاشتغال بالعلم وتحصيله والتأليف فيه .

ويقول إنه كان فى صغره يرنو إلى منزلة العالم الكبير أبى منصور بن عساكر الدمشقى ويطمح إلى أن تصبح له رتبته فى العلم ونشره وانتفاع الناس بدروسه وفتاويه ، فبلّغه الله فى ذلك فوق ما تمناه. ولكى يقفنا على ما وصل إليه من حُظْوة فى التقوى والعلم

وعند الناس يسوق إلينا طائفة من الأحلام والمنامات رؤيت له ، أو رآها هو لنفسه ، يقول :

« ورؤيت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم وما يرجوه من الخير ، منها أن والدته ، رحمها الله ، أخبرته ، وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب ، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان ، فقالت الوالدة : لا تعجب فإنى لما كنت حاملا به رأيت فى المنام كأنى فى أعلى مكان من المئذنة عند هلالها ، وأنا أؤذن ، فقصصتها على عابر " مفسر للأحلام " فقال : تلدين ذكراً ينتشر ذكره فى الأرض بالعلم والخير . ورأى هو فى صفر سنة أربع وعشرين وستمائة كأن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج ، خذلهم الله ، وكأن له به خصوصية من إفضاء أمره إليه والتحدث معه فى أمور المسلمين وهو يمشى إلى جانبه ملاصقاً منكبه ، حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم ، وكأنه واسطة بينه وبين الناس . وفى هذه السنة رأى أيضاً كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، سلمه الله ، داخل باب الرحمة بالبيت المقدس ، وقد أراد فتحه ، وثم من يمنع من فتحه ويدفعه لينغلق ، فما زالا يعالجان الأمر ، حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً ، بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذى خلفه . . ورآه المهتار هلال بن مازن الحرانى متقلداً هيكلا وهو يقول : انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله . ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا ، وهى قرية من قرى غوطة دمشق ، وكأنهم سئلوا ما شأنهم قالوا ننتظر النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بنا ، قالت وحضر تعنى مصنف هذا الكتاب ! ! ورأى الصلاح الصوفى أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه [وهو متزود] تزوداً تاماً يعجب منه الرائى . ورأى حسن الحجازى فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة كأن قائلا فى عالم الغيب

لا يراه بل يسمع صوته يقول : الشيخ أبو شامة ولىّ هذا الوقت . . ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، وهو أسن منه بنحو تسع سنين ، وكان من الصالحين رأى والدهما رحمه الله يقول له : عليك بالعلم ، انظر إلى منزلة أخيك ، فنظر ، فإذا هو فى رأس جبل ، والوالد والرائى يمشيان فى أسفله . ورأى فى صفر سنة سبع وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بحبل قد دُلِّىَ من السماء وهو مرتفع فيه ، فسأل إنساناً عن ذلك فى المنام ، فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى ، فقال له ذلك الإنسان : من بَنَى هذا المسجد ؟ فقال : سليمان بن داود ، فقال : أُعطى أخوك مثل ما أعطى سليمان ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال : أليس سليمان أوتى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ؟ أليس أعطى كذا وكذا وعدد أنواع ما أوتى ، فقال : بلى ، قال : وكذا أخوك أوتى أنواعاً من العلم كثيرة ! . ورآه الشرف الصرخدى فوق سطح بيت منعزل وهو يؤذن ، ثم بعد الأذان قرأ " واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب " . ورأى أيضاً كأن القيامة قد قامت ومصنف الكتاب راكب على حمار وهو مسرع ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أطلب النبى صلى الله عليه وسلم على الحوض . ورأى الشرف بن الرئيس أيضاً القيامة ووصف من أهوالها ، قال : ورأيت فلاناً يعنى صاحب هذا الكتاب ، فسألته عن حاله ، فقلت له : ماذا لقيت ؟ قال : لقيت خيراً . وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحدثاً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه فى قوله تعالى " وأما بنعمة ربك فحدِّثْ " وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له " » .

وهذه الرؤى فى جملتها تدل ، إن صحّت على صلاح أبى شامة وتقواه وأنه عُرف بذلك فى معاصريه ، حتى كانت تقترن آراؤهم فيه برؤاهم ، أو يقترن شعورهم بلا شعورهم . ويذكر شيوخه وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وخاصة علم الشريعة والحديث ، فى إجمال ، ثم يذكر مصنفاته ، وهى كثيرة ، منها ما

يتناول بعض مسائل الشريعة والقراءات والتفسير والحديث ، ومنها ما يتناول النحو واللغة ، ومنها مايتناول التاريخ مثل كتاب الروضتين. ونجد بين كتبه مختصرات كثيرة مثل مختصر تاريخ بغداد . وفى هذا ما يدل على أننا قد وصلنا إلى عصور الجمود فى الفكر العربى ، فقلما كان هناك من جديد ، بل أصبحت صناعة القوم تكرار الماضى . يوجزونه إلى أبعد حدود الإيجاز ، ثم يعودون فيبسطونه بالشروح والحواشى ، وهم فى هذا وذاك قلما يضيفون جديدا وإنما يعقّدون، ويحاولون أن يفكوا ما عقدوه . ونجد بين مؤلفاته أرجوزة فى الفقه ، وهى رمز لما شاع فى هذا العصر ومن قبله وبعده عند علماء العرب من نظم العلوم تسهيلا للحفظ ، وهو نظم يوضع فى عبارات موجزة شديدة الإيجاز ، ثم يشرحونها على طريقتهم فى شرح المتون النثرية . ولم ينظم فى الفقه فقط ، بل نظم أيضاً قواعد علم العروض والقوافى كما نظم مفصل الزمخشرى فى النحو ، ونظم شيئاً من متشابه القرآن الكريم. وكل هذا النظم تلخيص واختصار ، وهو تحول بالشعر عن غايته من التعبير عن المعانى الوجدانية إلى معان علمية خالصة ؛ لم يوضع لها ، وإنما وُضع لها النثر الواضح ، حتى تفهم . وكل ذلك يدل على أن القوم عُنُوا بالتراث القديم مما جعلهم يهتمون بتلخيص أنواع الثقافة الماضية ، تارة بالنثر ، وتارة بالشعر ، وقلما أضافوا جديداً وخاصة فى الأدب والشعر .

٤

كثرة التراجم العلمية والأدبية

لا نكاد نمضى بعد القرن السابع الهجرى حتى تكثر التراجم الأدبية والعلمية ، وخاصة عند العلماء الذين يؤلفون كتب الطبقات ، فقد أصبح سنّة فيما بينهم أن يترجموا لأنفسهم بجانب تراجمهم لغيرهم ، ومن أشهر من ترجموا لأنفسهم على هذا

النحو محمد بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م ومحمد بن عبدالرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥م. أما الجزرى فترجم لنفسه فى كتابه «غاية النهاية فى طبقات القراء» وهو يستهل الترجمة بأنه ولد فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بدمشق، وأتم حفظ القرآن الكريم سنة أربع وستين ، ثم أخذ فى سماع الحديث النبوى والقراءات وعنى بها عناية تامة ، حتى أتقنها ، ثم حج فى سنة ثمان وستين وسمع فى المدينة من شيوخها ولم يعد إلى دمشق ، بل رحل إلى الديار المصرية فى سنة تسع ، حيث واصل دراسته للقراءات السبع وما فوقها ، ثم عاد إلى دمشق ، ولـــكن سرعان ما تركها فى رحلة ثانية ، يأخذ فيها عن كبار الشيوخ فى عصره، وعاد إلى الديار المصرية، فقرأ بها الأصول والمعانى والبيان على الشيخ سعد الله القزوينى ، وألم بالإسكندرية ، وسمع من علمائها . وأخيراً أذن له بالفتوى وجلس للإقراء فى الجامع الأموى بدمشق وقصده الطلاب من كل فَجٍّ ، وولى قضاء الشام سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، ودخل فى آسيا الصغرى يقرئ الأمراء وغيرهم . ونزل ببلاد ما وراء النهر فى خراسان وحل بغير مدينة ، تارة يقرئ الناس ، وتارة يقضى بينهم ، ثم توجه إلى البصرة فبلاد العرب ، وطلابُ القراءات ينثالون عليه انثيالا ، ويقول إنه ألف فى نَجْد « الدرة فى قراءات الثلاثة » وجاور فى المدينة ومكة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، وفى إقامته بالمدينة ألف فى القراءات كتاب « نشر القراءات العشر » فى مجلدين ومختصره « التقريب » و « تحبير التيسير فى القراءات العشر » ويذكر أنه ألف قبل ذلك «شرح المصابيح»، كما ألف غير كتاب فى التفسير والحديث والفقه والعربية . ولا ينسى أن ينوه بما نظمه من المتون فى العلوم المختلفة، ومَرَّ بنا أن ذلك كان إحدى آفات العلم العربى فى أواخر العصور الوسطى ، إذ تحول العلماء غالباً لا إلى الابتكار فى التأليف ، وإنما إلى إعادة الماضى وتكراره بأسلوب جديد هو أسلوب الشعر ، وهو أسلوب لم يُعَدّ للعلم والثقافة، وقد جنى ذلك على الشعر الغنائى نفسه ، إذ أصبح الشعراء كالعلماء يدورون دوران

مجنون فى معان وصيغ محفوظة ، يبدئون فيها ويعيدون ، وقلما جاءوا بفكرة أو معنى جديد .

أما السخاوى فترجم لنفسه فى كتابه « الضوء اللامع فى رجال القرن التاسع الهجرى » ترجمة مسهبة ، ذكر فى أولها أنه ولد سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، واهتم به أبوه منذ نعومة أظفاره ، فأخذ يختلف به إلى شيوخ عصره فى القاهرة يقرأ عليهم القرآن الكريم وعلومه والنحو والعروض والحديث ، وهو يفصل الكلام فى ذلك تفصيلا واسعاً . وتعلم على الشيوخ كذلك الفقه والفرائض والتفسير ، ويفيض فى سماعه للحديث وعلومه ، حتى صار أكثر أهل العصر مسموعاً ورواية ، فقد أخذ عن أكثر من أربعمائة نفس ، ورحل إلى دمياط فسمع بها من بعض المسنْدين . وحج وسمع بمكة من كثيرين ، كما أخذ عن غير واحد بالمدينة ، ورجع إلى القاهرة ، فأقام بها ملازماً للسماع والقراءة والتخريج والاستفادة من الشيوخ ، وتنقل فى البلاد المصرية يأخذ عن العلماء ويفيد ، محصّلا للكتب المختلفة . ثم رحل إلى حلب ، ويعدّد المدن التى مر بها ، ومن سمع منهم وأجازوه حتى اجتمع له من المرويّات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف ، ويأخذ فى سَرْد ذلك سرداً مفصلا ، ويذكر لنا بعض مجالسه ، ويقول إنه توجه للحج مع أولاده فى سنة سبعين ، وهناك حدّث بأشياء من تصانيفه وغيرها وأملى مجالس (محاضرات) بالمسجد الحرام ، ولما رجع إلى القاهرة أخذ فى إملاء بعض تخريجاته وحجّ فى سنة خمس وثمانين ، وجاور سنة ست ثم سنة سبع ، وعاد إلى الحج والمجاورة مراراً ، وحين رجوعه إلى مصر كان يأخذ عنه كثير من الخلائق .

ويذكر أنه شرع فى التصنيف والتخريج قبل الخمسين ، ويعرض علينا بعض تخريجاته لكتب الحديث ، ثم يسرد مصنفاته فيه وفى علومه وفى التاريخ وفى مسائل متنوعة من مسائل الشريعة ، ويذكر لنا من أثنوا عليه من كبار العلماء وخاصة المحدّثين ، ويسوق ثناءهم وشهادتهم له ، كما يسوق بعض ما نُظم فيه من مدائح ينوه أصحابها بعلمه وفضله وحسن روايته للحديث حتى غدا عَلَماً فيه ،

وتولى مشيخة تدريسه بمدارسه الكبيرة فى القاهرة ، وينتهى من ترجمته بقوله : « وهذا كله وهو عارف بنفسه معترف بالتقصير فى يومه وأمسه ، خبير بعيوبه . . لكنه أكثرَ الهذيان ، طمعاً فى صفح الإخوان » .

وأما السيوطى فإنه ترجم لنفسه فى كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » وقال فى أول ترجمته إنه يقتدى فى الترجمة لنفسه بالمحدّثين والمؤرخين قبله مثل عبد الغافر الفارسى فى كتابه تاريخ نيسابور ولسان الدين بن الخطيب فى كتابه تاريخ غرناطة وابن حجر فى كتابه قضاة مصر . ويذكر أن جده الأعلى كان من المتصوفة ومشايخ الطرق ، ومن خلفوه من أجداده كانوا من أهل الوجاهة والرياسة ، أما أبوه فكان فقيهاً على مذهب الشافعى ، ويذكر أنه ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ /١٤٤٥ م . ولم يلبث أن توفى والده ، فنشأ يتيماً ، وعلى عادة أترابه حفظ القرآن ، ثم أخذ فى دراسة النحو والفقه والفرائض على كبار الأساتذة والشيوخ فى عصره ، واختلف إلى أصحاب التفسير والحديث والأصول ، ويذكر بعض من أثنوا عليه من شيوخه .

والحق أن السيوطى يعد أحد العلماء الأفذاذ الذين ظهروا بمصر فى العصور الوسطى ، وقد ترك كثيراً من المؤلفات ، حتى لتشبه فى مجموعها دائرة معارف كبرى تضم العلوم الشرعية واللسانية والأدبية والتاريخية ، وتحدث عن ذلك فقال:

« شرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين ، وبلغتْ مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه ، وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور . . وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين ، وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين ، ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة الأعاجم وأهل الفلسفة » .

ويقصد السيوطى بطريقة العرب والبلغاء فى علوم البلاغة أنه كان فيها لا يعنى بما وصلت إليه هذه العلوم من تعقيد شديد عند متفلسفة العجم أمثال القزوينى

والسيد الجرجانى ومن إليهما ممن أحالوا مسائلها البسيطة إلى مشاكل عقلية على نحو ما هو معروف عند القزوينى فى تلخيصه ومَنْ شرحوه من أمثال الجرجانى والتفتازانى . ولم يكن السيوطى فى ذلك شاذاً على أدباء مصر وعلمائها ، بل كانوا جميعاً فى عصره يذهبون مذهبه من العناية بالنصوص الأدبية دون الوقوف عند عقد التفتازانى ومن جرى فى إثره ، وهو يسمى هذا المنهج طريقة العرب والبلغاء.

وأخذ بعد ذلك يسرد مؤلفاته فى التفسير ومسائله وعلى رأسها كتابه «الإتقان» ثم فى الحديث وقد أكثر فيه من الشروح على أمهاته القديمة ، ثم فى التاريخ ، وقد كتب كثيراً فى طبقات العلماء المختلفين ، وكتابه «بغية الوعاة فى طبقات النحاة» من أشهر الكتب التى تعنى بتاريخ هذه الطائفة من العلماء ، وله فى النحو «همع الهوامع» ويعد موسوعة كبيرة فى هذا العلم ، إذ حشد فيه آراء العلماء المختلفين منذ الخليل إلى عصره فى العراق وغير العراق وكتابه «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة» الذى ذكر فيه ترجمته من خير الكتب التاريخية . وقد ألف غير كتاب فى الأصول وعلوم البلاغة . وألف بجانب ذلك ديوان خطب ومجموعة مقامات ، ونظم فى غير فن ، وهو فى الحقيقة أعجوبة من أعاجيب مصر فى أواخر عصرها المملوكى .

وهؤلاء العلماء الثلاثة ترجموا لأنفسهم فى كتب ترجموا فيها لغيرهم ، وكثر فى عصورهم أن يفرد العلماء لأنفسهم تراجم فى كتيبات ورسائل مستقلة ، وممن وصلتنا ترجمتهم على هذا النحو حافظ الشام ومؤرخه فى القرن العاشر الهجرى محمد بن على بن طولون الدمشقى الحنفى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م فإنه ترجم لنفسه فى كتيب سماه «الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون» وهو يذكر فى أوله أنه ولد بصالحية دمشق فى سفح قاسيون سنة ثمانين وثمانمائة ، وتوفيت والدته وهو فى المهد وكانت رومية تحسن لسان الأروام ، ونشأ فى حجر والده وعمه مفتى دار العدل ، واختلف إلى الكتّاب يحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم الحديث والنحو حتى مهر فيهما ، ويحصى لنا

الكتب التى قرأها عليهم فى هذين الفنين وفى الفقه الحنفى والقراءات وعلم الأصول والتفسير والمنطق والطب وعلوم البلاغة .

وكان النظام المتبع فى حمل العلوم أن تعطى فيها إجازات ، يشهد فيها الأستاذ لتلميذه بحسن تلقيه وأنه حرى أن يروى العلم عنه ، وهو يسرد علينا كثيراً من هذه الإجازات التى منحها له أساتذة عصره فى الشام وغير الشام فقد رحل إلى مصر وأخذ عن السيوطى أكثر كتبه فى الحديث والنحو وغيرهما ، يقول :

« ومن أراد الاطلاع على معرفة ماتيسر لى نوعُ إلمام به من أنواع العلوم فعليه بكتابى المسمى باللؤلؤ المنظوم ، فإنى ذكرت فى كل واحد منها ما تيسر لى من رسمه وموضوعه وغايته ، وعمن أخذته وماذا كتابى فيه ، وما لى فيه من تأليف إلى حين وضعى لهذا المؤلف . . ومجموع ماذكرت فيه من العلوم ثمانية وثلاثون علماً .. وفى ضمنها علوم أخرَ تزيد مع هذه على اثنين وسبعين علماً . وقد كتب لى كل واحد من هؤلاء الأشياخ ممن اشتغلت عليهم فى هذه العلوم إجازة وبعضهم إجازتين ، وبعضهم ثلاثاً ، جمعتها فى مجلدة . . خلا بعض الإجازات كتبت على الكتب المقروءة » . ويذكر لنا صوراً من الإجازات التى منحها له شيوخه ، يقول :

« فمنها ما كتبه لى العلامة الشمس بن رمضان حين قرأت عليه ألفية علوم الحديث وتلخيص المفتاح فى علم المعانى ومضافيه " البيان والبديع " : قرأ علىّ الشيخ الإمام الفاضل البارع المتقن المحصل الذكى الألمعى اللوذعى محمد ابن طولون — جعله الله من عباده الصالحين ، ورزقه العلم ، وجعله من العلماء العاملين — جميع هذا الكتاب وهو تلخيص المفتاح فى كذا ، وكذا أيضاً قرأ الأرجوزة المنسوبة للعلامة الزين العراقى فى علم الأثر " الحديث " قراءة بحث وإتقان وتحرير وإمعان ، وورَّخها فى مجالس آخرها فى ذى القعدة سنة سبع وتسعين وثمانمائة بالمدرسة القجماسية داخل دمشق المحروسة بحضرة جماعة من الطلبة ، وقد أجزته بمذاكرته ماقرأه ممن التمسه منه ، مع ما يجوز لى روايته بشرطه » .

وكان لايقعد لإملاء الحديث النبوى خاصة إلا من شهد له شيخ بمثل هذه الإجازة حيطة وحذراً حتّى لا يرويه من لا يحسنه أو من كان مجرَّحاً . ومن أراد الاتساع فى معرفة طرق رواية ا لحديث فعليه بالكتب الخاصة بمصطلحه ، فإنه واجد لروايته شروطاً وقواعد تشدد فيها القوم تشدداً واسعاً ، حتّى غدت علماً معقداً من علومهم .

ويحدثنا ابن طولون بعد ذلك عن الوظائف التى تولاها ، وهى تدور على تدريس القراءات والحديث والفقه فى مدارس ومساجد مختلفة، وعُهد إليه أحياناً بخدمة الكتب والقيام عليها كما عهد إليه بالنظر على بعض الخوانق والحبوس أو الأوقاف ، وتولى غير مشيخة ، وكان يتقاضى فى بعض وظائفه المتعددة خمسة عشر عثمانياً . وينتقل من بيان ذلك إلى سرد مؤلفاته الكثيرة فى كل فن، ورتبها على حروف المعجم، وهى تستغرق من الكتيب نحو عشرين صحيفة ، تلاها بما قيل فى مدحه وفضله وعلمه من شعر ونثر .

الفصل الثالث

تراجم صوفية

١

المتصوفة يصفون سلوكهم وتجاربهم

رافقت الإسلام منذ نشأته نزعة زهد ، أخذت تنمو وتتطور وتدخل فيها عناصر أجنبية مختلفة ، انتهت إلى ظهور طبقة المتصوفة ، وهى طبقة تجردت تجرداً كاملا عن الدنيا ومتاعها ونبذت كل طيباتها ومباهجها مؤثرة الفقر والمسغبة والثياب الخشنة كالصوف ونحوه، سامية بأنفسها إلى الكائن الأوحد والملاذ الأعلى ، متعطشة إلى نوره الذى يفيضه على الوجود ، متشوقة إلى الاتحاد به والفناء فيه .

وقد أخذوا يضعون لهم منذ أوائل العصر العباسى طقوساً وعادات ، يسمونها أحوالا ومقامات ، يحاولون بها التخلص من كيانهم المادى وحجب أجسادهم الكثيفة ، حتى يتهيأوا لانكشاف الحقيقة المتوحدة لهم ، وحتى تغمرهم أنوارها ، وتشرق عليهم أضواؤها الأزلية ، بل حتى يفنوا فيها فناء مطلقاً .

وهو فناء ترافقه المحبة وما يسمى بالعشق الإلهى ، وهى محبة من نوع سام ، تتعطل فيها كل الإرادات والضرورات المادية ، إذ يذوب المحب فى المحبوب ، ولا يكون له وجود إلا فيه . ويتخيلون لذة المحبة كأساً ، لا يشرب منها الصوفى وتحتويه حتى يغيب عن وجوده الظاهر ، وينتشى بفنائه فى وجود باطن مع الكائن الإلهى الأعظم .

ولسنا بصدد البحث فى التصوف ولا فى نظريات المتصوفة وما يتفق منها مع روح الإسلام وما لا يتفق ، إنما تهمنا تراجمهم الشخصية ، وما خلفوا منها للأجيال التى تلتهم . ومعروف أن لهم كتباً مختلفة عنيت بالترجمة للبارزين منهم على مرّ العصور .

ومن أهم ما يميز هذه التراجم أنها تصور لنا سلوكهم وتضع تحت أعيننا كثيراً من تجاربهم التى تعد فى جوانب منها غريبة وخاصة حين يتحدثون عن كراماتهم ومكاشفاتهم وما عرض لهم من الأحـــوال . وكثير مما يروى عنهم فى يقظتهم يشبه الرؤى والأحلام ، ومن غير شك يتيح ذلك ميداناً فسيحاً لعلم النفس الحديث وأبحاثه ودراساته . وفى الوقت نفسه تتحول تراجمهم إلى تراجم شخصية فى أكثر جوانبها ، لأن من كتبوها قصروها ، أو كادوا ، على كلامهم فى التصوف وما ينصحون به فى معرفة الطريق ، وقد يعرضون بعض تجاربهم الحقيقية . وهم فى ذلك إنما يصفون أنفسهم ويعرضون سيرتهم ، وقد يعرضونها شعراً ، وقد يعرضونها نثراً أشبه ما يكون بالشعر ، ففيه الإبهام والغموض ، وفيه هذا التطلع الحالم إلى أشعة الذات العلية .

ولعل ذلك ما يجعل قراءة هذه التراجم محببة إلى النفس . لأننا نجد فيها تجارب تأخذ بألبابنا ، ومجاهدات تشبه مجاهدات الفراش حين يحوم على النار ، يريد أن يسقط فيها . وهى مجاهدات وتجارب بدأت منذ رابعة العدوية ومعاصرها إبراهيم بن أدهم ، وإليها تنسب هذه الأبيات فى العشق الإلهى :

أحبك حُبَّين حُبُّ الهوى ... وحبٌّ لأنك أهلٌ لذاكا

فأما الذى هو حبُّ الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهلٌ لـــه ... فكشفك لى الحُجْبَ حتى أراكا

وكان إبراهيم بن أدهم أميراً من أمراء بَلْخ ، فخرج يوماً للصيد . فأثار ثعلباً أو أرنباً : فسمع هاتفاً يهتف به : يا إبراهيم ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ثم

هتف به : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته ، وصادف راعياً ، فأخذ ثوبه وكان من صوف ، وأعطاه ثوبه وفرسه وما معه ، وساح فى الأرض تائباً مستغفراً مؤثراً ما عند ربه . ويقال إن حرّس قصره سمعوا ليلة جلبة فوق سطحه ، وذهبوا لتبين الأمر ، فوجدوا قوماً يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة . فاقتادوهم إلى إبراهيم ولما سألهم هل حدث أن بحث شخص عن إبله المفقودة فوق أحد السطوح؟ أجابوا إننا نقتدى بك لأنك تبحث عن ربك وأنت جالس على كرسى إمارتك . فخلع ثوب الإمارة ورمى به بعيداً وفرّ عن القصر ودخل البادية وظل سائحاً حتّى وصل إلى مكة ودخل الشام ومات بها سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ م . وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين. ويقولون إنه كان يحفظ كَرْماً فمر به جندى ، فقال : أعطنى من هذا العنب، فقال : ما أمرنى بذلك صاحبه ، فأخذ يضربه بسوطه ، فطأطأ له رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله ، فأعجز الجندى ومضى . ومما يروونه عن سلوكه وسيرته أنه كان يقول : لا ينال شخص درجة الصالحين حتّى يجوز ست عقبات ، أولاها يغلق باب النعمة ، ويفتح باب الشدة ، والثانية يغلق باب العز ويفتح باب الذل ، والثالثة يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد والرابعة يغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، والخامسة يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، والسادسة يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت . وهى أبواب اجتازها هو نفسه ليتخلص من متاع الدنيا ، ويحصل على رضوان ربه ، ويصبح من أهل المعرفة المتصوفة الأصفياء .

وتتناقل كتب المتصوفة أقوالاً كثيرة فى التصوف وأحواله ومقاماته لأبى سليمان الدارانى المتوفى سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م من مثل قوله : « إن الله تعالى قد يكشف للعارف وهو نائم فى فراشه من السر ويفيض عليه من النور ما لا يكشفه للقائم فى صلاته . وإذا استيقظت فى العارف عين قلبه نامت عين جسده، لأن العارف لا يرى سوى الحق » ويروى بعض المتصوفة أنه دخل عليه وهو يبكى

فقال له ما يبكيك ؟ فقال : ولمَ لا أبكي ، وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم وتقطرت فى محاريبهم أشرفَ الجليل سبحانه وتعالى فنادى يا جبريل ! بعيني من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى . وإنى لمطلع عليهم فى خلوتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادى فيهم يا جبريل ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل بى أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تملقوا لى ، فبى حلفت إنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهى الكريم ، حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم .

وفكرة الحب الإلهى التى تعلق بها المتصوفة واضحة تمام الوضوح فى هذا النص ، وقد ترك الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م كثيراً من النصائح التى إذا اتبعها السالك وصل إلى هذا الحب ، وذكر فى نصائحه أنه كان يسير أولا فى طريق شائك، ثم اهتدى إلى طريق المتصوفة الصالحين ، وكان يقول : « إن أول المحبة الطاعة ؛ وهى منتزعة من حب السيد عز وجل ، إذ كان هو المبتدئ بها ، وذلك أنه عرّفهم نفسه ودلهم على طاعته وتحبب إليهم على غناه عنهم ، فجعل المحبة له ودائع فى قلوب محبيه ، ثم ألبسهم النور الساطع فى ألفاظهم من شدة نور محبته فى قلوبهم . . والحب لله هو الحب المحكم الرصين وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله . وشدة الأنس بالله وقطع كل شاغل شغَل عن الله . . والحب إذا ثبت فى قلب عبد لم يكن فيه فضل لذكر إنس ولا جان ولا جنة ولا نار ولا شىء إلا ذكر الحبيب وذكر أياديه وكرمه . . وذكر ما وعد أولياءه من كشف الحجب لهم وأنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر » . وكان ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م يرى أن غاية الحياة الصوفية الوصول إلى مقام المعرفة حيث يدرك الصوفى الحقائق بذوقه لا بعقله ، وكان يقول من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه ، وقد سئل عن سبب توبته وسلوكه طريق المتصوفة فقال : أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى ، فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، ففتحت عينى ،

فإذا أنا بقبَّرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها سُكُرُّجتان إحداهما ذهب والأخرى فضة ، وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا ، فقلت حسبي قد تُبْتُ ، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل . ويحكى عن السرىّ السَّقَطى المتوفى عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أكل الخبز بالقديد (اللحم المقدد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ، فعاهد نفسه أن لا يتناول أبداً شيئاً من الإدام . وقال تلميذه وابن أخته الجنيد : « دخلت يوماً عليه وهو يبكى ، فقلت له ما يبكيك ؟ فقال : جاءتنى البارحة الصبية فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلِّقه ههنا ، ثم إنه حملتنى عيناى ، فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء ، فقلت لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد فى الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض ، فكسرته » .

ومن أكبر من طوروا التصوف وفتحوا أبواباً فيه يجتازها من يريد الوصول إلى ربه أبو يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤م فقد أشاع الحديث عن الفناء فى الذات العلية بحيث يحصر المتصوف نفسه فى التأمل فى ربه ، ولا يخطر بفكره أى شىء سواه ، بل حتى يعطل حياته العقلية الشاعرة عن إدراك فنائه فى ربه . وقد سئل كيف وصلت وحصلت هذه الدرجة من التصوف فقال : خرجت ذات ليلة من بسطام وكنت صبيًّا ، وقد أضاء القمر وسكن كل شىء ، فرأيت حضرةً كانت العوالم الثمانية عشرة ألفاً إلى جانبها كالذرة ، فاضطربت واعترتنى دهشة عظيمة ، وصحتُ يا رب ! ساحة خالية مع هذا العظم وملكٌ موحش مع هذا الجلال ، وإذا بهاتف من السماء يقول : ليس خلو الساحة من انعدام اللاجئين ، بل لأننا غير ذلك شئنا ، فإنه ليس كل من عفَّر وجهه أهلا للدخول فى هذه الساحة » . وقال : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح

منى فىّ : يا من أنت أنا ، فتحققت بمقام الفناء فى الله » . وقال : « كنت اثنى عشر عاماً حداد نفسى ، ألقيت بها فى كور الرياضة وأحرقتها بنار المجاهدة ، ووضعتها على سندان المذمة ، وطرقتها بمطرقة الملامة ، حتى جعلت منها مرآة . وكنت خمس سنين مرآة نفسى أصقلها دائماً بأنواع من العبادة والتقوى ، وسنة أنظر فيها بعين الاعتبار ، وقد نظرت فإذا فى وسطى زُنّار من الكبر والعجب والرياء والاعتماد على الطاعات والنظر بعين الارتياح إلى الأعمال . فعملت خمس سنين حتى انقطع ذلك الزنار واعتنقت الإسلام من جديد . ونظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى ، فكبرت عليهم أربع تكبيرات ، ورجعت من جنازتهم جميعاً ، ووصلت إلى الله بعون الله وحده من غير وساطة من الخلق » . وفى مثل هذا المعنى قال : « منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتى ، فصرت اليوم مرآة نفسى ، لأننى لست الآن من كُنْته . وفى قولى "أنا" و"الحق" إنكار لتوحيد الحق لأننى عدم محض ، فالحق تعالى مرآة نفسه ، بل انظر إن الحق مرآة نفسى لأنه هو الذى يتكلم بلسانى ، أما أنا فقد فنيت » . وتنسب إليه أقوال تدل على أنه كان ينزع إلى فكرة وحدة الوجود من مثل قوله : « خرجت من بايزيديتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد لأن الكل واحد فى عالم التوحيد » .

وخطا الحلاّج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ / ١٩٢١ م مقتولا بفكرة وحدة الوجود خطوات وكتابه « الطواسين » تصوير لأحواله ومقاماته الصوفية ، وهو ملىء بالرموز الغامضة ، وكثير من عباراته يشبه الطلاسم ، فهى تستعصى على الحل والفهم ، وإن قوله الذى شاع عنه : « أنا الحق » يلخص نظريته ، إذ يريد بالحق الذات العلية ، وشرح نظريته فى ذلك فقال :

« تجلى الحق لنفسه فى الأزل قبل أن يخلق الخلق ، وقبل أن يُعلم الخلق ، وجرى له فى حضرة أحديته مع نفسه حديث لا كلام فيه ولا حروف ، وشاهد سبحات ذاته فى ذاته . وفى الأزل — حيث كان الحق ولا شىء معه — نظر إلى

ذاته فأحبَّها وأثنى على نفسه ، فكان هذا تجلياً لذاته فى ذاته فى صورة المحبة المنزهة عن كل وصف وكل حدّ . وكانت هذه المحبة علة الوجود والسببَ فى الكثرة الوجودية . ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتى ماثلا فى صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها، فنظر فى الأزل ، وأخرج من العدم صورة من نفسه ، لها كل صفاته وأسمائه ، وهى آدم الذى جعله الله صورته أبد الدهر . ولما خلق الله آدم على هذا النحو عظّمه ومجّده واختاره لنفسه، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو » . ونراه يمثل الوصول إلى الحقيقة على هذا النحو : « الخواطر علائق ، وعلائق الخوالق لا تصل إلى الحقائق ، والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة . الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق، الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال، فيخبرهم عن الحال بألطف المقال، ثم يمرح بالدلال طمعاً فى الوصول إلى الكمال . صورة المصباح علم الحقيقة ، وحرارته حقيقة الحقيقة، والوصول إليه حق الحقيقة . لم يرض بضوئه وحرارته ، فيلقى جملته فيه ، والأشكال ينتظرون قدومه ، فيحذرهم عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشياً متصاغراً متطايراً ، فيبقى بلا رسم وجسم، واسم ووسم، فلأى معنى يعود إلى الأشكال وبأى حال بعد ما حاز . صار مَن وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر » . وكان يرى أن « من هذب فى الطاعة نفسه واشتغل بالأعمال الصالحة قلبه وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه فى متع الشهوات ارتقى بها إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يتنزّل فى درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حلّ فيه روح الله . . فيصير مطاعاً ، فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وإن جميع فعله حينئذ فعل الله وجميع أمره أمر الله » . ومن شعره قوله :

أنا من أهْوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حَلَلْنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرتَه ... وإذا أبصرتَه أبصرتنا

وقوله :

مُزِجَتْ روحك فى روحى كما   تُمْزَجُ الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسّك شىء مسّنى   فإذا أنت أنا فى كل حال

وعُدَّت هذه الآراء وما يماثلها خروجاً على الإسلام وتعاليمه فأفتى فقهاء عصره بقتله، وحُبِس طويلا. ثم قتل. ومن الآراء الغريبة التى نسبت إليه اتخاذه إبليس مثلا للمتصوفة ، لأنه لم يرض أن يسجد لآدم ، حتى لا يسجد لغير ربه ! ويظهر أنه مزج تصوفه بشعوذة غير قليلة .

ولسنا نستطيع المضى فى هذه السير الصوفية التى تقصها كتب الطبقات لأنها باب يطول ، ويخرج بنا عن غايتنا من هذا الكتيب الذى جعلناه للترجمة الشخصية يكتبها صاحبها قاصداً ، وأكثر ما قدمناه إنما هو فى وصف المتصوفة لسلوكهم وطريق تخلصهم إلى غايتهم ، وقلما نجد عندهم اعترافات مثل هذا الاعتراف الذى يذكره الحجويرى فى «كشف المحجوب» وهو من متصوفة القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) إذ يقول إن الله صانه من آفة الزواج أحد عشر عاماً ، ثم وقع فى فتنة لمدة عام ، إذ أصبح أسيراً لتلك التى لم يرها ، وبقى على ذلك عاماً ، حتى كاد أن يهلك ، وأخيراً منّ الله عليه بلطفه فعصم قلبه الضعيف ، وخلصه من محنته .

ولم نتعرض لكرامات المتصوفة ، وهى الأخرى تعد من تجاربهم ، إذ كانت تعتقد العامة فيهم أنهم يأتون ببعض الخوارق ، وهى تقابل عندهم معجزات الأنبياء . وتقص كتبهم أطرافاً من ذلك كلها عجائب وغرائب ، كأن يطير أحدهم فى الهواء أو يمشى على الماء . وقد يكون ذلك ضرباً من التخييل .

وشاع عند غير واحد منهم القول بإسقاط الشرائع وتعطيل العبادات ، اكتفاء بالوصل وانكشاف الحقيقة ، وانبرى منهم كثيرون يردون على هذا الاعتقاد الفاسد كما انبرى لهم كثير من الفقهاء يسفهون آراءهم وما «رسالة القشيرى» المشهورة

إلا رد على أصحاب هذا الزعم بما تروى من سِيَر فضلائهم ، الذين كانوا يرون القيام بالفروض الدينية باب الوصول الحقيقى .

ولا نصل إلى القرن الخامس الهجرى حتى يقوم شقاق واسع بين الفقهاء من أصحاب الشريعة والمتصوفة من أصحاب الحقيقة . ولا يلبث الغزالى أن يظهر ، فيطهّر التصوف من الأدران التى علقت به من مثل الحلول والإيمان بوحدة الوجود ، وتعطيل فروض الشريعة . وبذلك يرفع الحواجز التى أقامها الطرفان المتعاندان من الفقهاء والمتصوفة . ولم يصل إلى هذه الغاية إلا بعد رحلة عقلية شاقة قصها علينا فى كتابه « المنقذ من الضلال » . وربما كان أطرف التراجم الشخصية التى خلفتها لنا العصور الوسطى ؛ ومن أجل ذلك نخصه هو وصاحبه بكلمة .

٢

الغزالى

يعد الغزالى أكبر عقلية خدمت الشريعة والتصوف فى وقت معاً ، فقد وقف حياته على التوفيق بين هذين الاتجاهين ، ولد فى طوس من أعمال خراسان سنة ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ، ولم يلبث والده أن توفى بعد أن عهد بتربيته إلى صديق له صوفى .

واتجه الغزالى إلى دراسة الفقه وعلم الكلام ، ورحل فى سبيلهما إلى نيسابور ؛ فتتلمذ على إمام الحرمين العالم الشافعى المتكلم المشهور ، وأخذ منذ تتلمذه على هذا الشيخ يضيق بجدل الفقهاء وكثرة تفاريعهم . كما أخذ يضيق بدقائق الكلاميين ، وتحول ذلك فى نفسه إلى شك فى حقيقة هذين العلمين ، وأيضاً أخذ يشك فى آراء الفلاسفة . وحدث أن قدم على مجلس نظام الملك وزير السلطان

السلجوقى فأعجب به ، وعهد إليه أن يقوم بتدريس الفقه وعلم الكلام فى مدرسته المشهورة باسم المدرسة النظامية ، وكانت أكبر جامعة إسلامية فى هذا الحين ، وظل يقوم بهذا التدريس من سنة ٤٨٤ ه إلى سنة ٤٨٨ ه وفى هذه الأثناء ألف فى الفلسفة كتاباً دل فيه على أنه أحسن الإلمام بأصولها ومسائلها عند ابن سينا والفارابى وغيرهما من متفلسفة المسلمين . ولم يكن يقصد بكتابه إلى دراسة الفلسفة من حيث هى ، وإنما أراد أن يصور مسائلها تصويراً دقيقاً حتى يهدمها فى كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » . وتحول يشك فى الفقه والكلام اللذين يدرسهما ، ويرى أنهما قاصران عن بث الطمأنينة فى قلب المسلم ، إذ لا يستطيع عن طريقهما تذوق الحقيقة العليا : حقيقة الذات الإلهية .

وفجأة ينقطع عن التدريس فى المدرسة النظامية ، ويصرخ فيه هاتف باطنى يدعوه أن ينصرف عن الدنيا ومطامعها ، ويمرض ، ويشفى من مرضه وقد عزم على الرياضة والمجاهدة والخلوة والعزلة عن الناس ، ويرحل عن بغداد ويسيح فى الأرض متنقلا بين معابد وصوامع الحجاز والشام ومصر . وفى أثناء ذلك يؤلف كتبه وقد تحول ناسكاً عابداً ، وفى الوقت نفسه مصلحاً دينياً ، يؤمن بأن الدين تذوق باطنى ، وليس مجرد أحكام تعلل وإنما هو كما يقول المتصوفة شىء تشعر به الروح وتتذوقه . وعن طريق هذا الشعور والتذوق يصل المسلم إلى المعرفة اليقينية التى ينشدها . وهو يطهر هذه المعرفة ، فليس فيها إيمان بحلول كما يغلو بعض المتصوفة . وليس فيها إبطال ولا إنكار لأحكام الشريعة ، بل التصوف الحق هو الذى يصل بين هذه الأحكام والقلب . وبهذه الروح عالج الأحكام والسنن الشرعية فى كتابه المشهور « إحياء علوم الدين » وكتبه الأخرى التى ذاعت فى العالم الإسلامى وعُد بها « حجة الإسلام وزين الدين » . وعاد فى أواخر أيامه إلى وطنه واشتغل بالتدريس فى نيسابور ، وكتب كتابه « المنقذ من الضلال » يصف رحلته العقلية ، وكيف وصل أخيراً إلى الحق ، ولم يلبث أن توفى بطوس سنة ٥٠٥ ه / ١١١١ م .

والغزالى يفتتح كتابه بأن بعض إخوانه سأله أن يشرح كيف ارتفع عن حضيض التقليد إلى قمم الاستبصار وتحصيل العلم اليقينى ، ويقول إن « اختلاف الخلق فى الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق، غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجى وكل حزب بما لديهم فرحون » . ويذكر أنه منذ شبابه إلى أن أناف على الخمسين يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض أغواره وأعماقه خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، ودعاه ذلك إلى أن يتوغل فى الاطلاع على كل مذهب عند أهل السنة وعند الباطنية وعند الفلاسفة والمتكلمين وعند الصوفية المتعبدين، بل أيضاً عند الزنادقة والملحدين . ويقول إنه طُبِع منذ الشباب على ترك التقليد ، ومحاولة معرفة الطريق إلى العلم اليقينى الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، واجتاحته فى أول أمره لذلك موجة من الشك ، أنقذه الله منها ، يقول :

«أعضل هذا الداء "داء الشك" ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة " الشك " بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفا الله تعالى ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن كل ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيّق رحمة الله الواسعة » .

ولما شفاه الله من هذا المرض انحصرت أمام عينه فرق طالبى الحق فى أربعة أصناف هم (١) المتكلمون (٢) والباطنيون من الشيعة (٣) والفلاسفة أهل المنطق والبرهان (٤) والصوفية أهل المشاهدة والمكاشفة . وأخذ بسلك طرق هذه الفرق ، ينشد الحق مبتدئاً بعلم الكلام ، حتى إذا لم يجد فيه طلبته انتقل إلى الفلسفة، فافتقد بغيته ، فتحول إلى تعاليم الباطنية ، فلم يجد فيها أمنيته ، وانتهى أخيراً إلى التصوف ، فوجد فيه النور الذى كان ينشده .

ويصف لنا أولا رحلته فى علم الكلام ، وكيف تعمق فى دراسة مباحثه وأهم كتبه، بل لقد ألف فيه، ويصور لنا غايته وهى حفظ العقيدة الإسلامية وحراستها من تشويش أهل البدع ، وهى غاية نبيلة . إلا أن الغزالى لم يلبث أن لاحظ قصور أدلة المتكلمين لاعتمادها على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى التسليم بها التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع فى جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا». فلم يكن الكلام له كافياً ؛ ولا لدائه الذى يشكوه شافياً .

ومعنى ذلك أنه عد أدلة الكلاميين إسرافاً عقلياً لا غناء فيه ، لسبب بسيط وهو أنه لا يتفق مع بساطة الفكر الدينى ؛ وتحول إلى الفلسفة لعله يجد فيها ما يشفيه من مرضه . وبدأ فدرسها دراسة دقيقة .وكان فى أثناء ذلك يلقى محاضراته على ثلاثمائة طالب بالمدرسة النظامية . فلم يصرفه هـــذا العمل عن تحصيلها ؛ بل لقد واصل النظر فيها ، حتى عرف فرقها واختلاف مذاهبها وطوائفها، وقد انتهى إلى أنهم ثلاثة أصناف : صنف دهريون جحدوا الصانع المدبر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه وبلا صانع ، وهم الزنادقة . وصنف طبيعيون يكثرون من البحث فى عالم الطبيعة ، وهداهم هذا العالم إلى أن له صانعاً حكيما ، ولكنهم لم يعتقدوا فى شىء وراء ذلك فلم يؤمنوا بالبعث والنشور . وهم أيضاً زنادقة وإن آمنوا بالله وصفاته. وصنف ثالث إلهيون ردّ على الصنفين الأولين ، ولكنه استبقى من رذائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، ومن هذا الصنف أرسطاليس ومتفلسفة المسلمين كابن سينا والفارابى . ونراه بعد ذلك يتحدث عن علوم المتفلسفة فيقول إنها بالنسبة إلى الشريعة ستة أقسام : (١) رياضيات (حساب وهندسة وعلم هيئة) وهى أمور برهانية لا تجحد معرفتها إلا أنه تولد منها آفتان ، أولاهما أن من ينظر فيها يعجب بدقائقها وظهور براهينها ، فيحسن اعتقاده فى الفلاسفة وينسحب هذا الاعتقاد على ما يقولونه فى الإلهيات ، ناسياً

أن كلامهم فى الرياضيات برهانى وفى الإلهيات تخميني . وثانية الآفتين جاءت من أصدقاء الإسلام الجهال الذين ينكرون الفلسفة حتى رياضياتها ، فشككوا الناس فى الدين إذ ظنوا أنه مبنى على إنكار البراهين القاطعة . (٢) ومنطقيات ، وهى لا يتعلق شىء منها بالدين نفياً وإثباتاً ، وهى تشبه ما ذكره المتكلمون من أدلتهم ، وآفتها آفة الرياضيات . (٣) وطبيعيات ، والدين لا ينكرها إلا فى بعض مسائل سبق أن ذكرها فى كتابه « تهافت الفلاسفة » . (٤) وإلهيات وفيها أكثر أغاليطهم ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها ، ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا : وكفرهم الغزالى فى ثلاثة منها وهى : أن الأجساد لا تحشر وإنما تحشر الأرواح . والله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات وهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . ثم قولهم بقدم العالم وأزليته . (٥) وسياسيات ترجع إلى الحِكَم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، وهى لا تتعارض مع الدين ، بل إنها تستمد منه . (٦) وخلقيات وهى معارف تهذيبية أخذوها عن المتصوفة ومزجوها بكلامهم . ويرى الغزالى أن لمجموع هذه العلوم آفتين : أن من يؤمن ببطلانها قد يرد ما نقل إليها من الدين وكلام الرسل والأنبياء والمتصوفة وما جاء على ألسنة عُبَّادهم ونسَّاكهم ؛ لأن أطرافاً من كل ذلك مزجوها بكلامهم . والآفة الثانية أنه قد يرى هذه الأقوال التى يؤمن بصحتها عندهم ، فيؤمن جملة بآرائهم وما فيها من باطل . ولذلك دعا الغزالى إلى تمحيص كتبهم بل زجر عن مطالعتها . ونهى عن قراءتها ؛ لما فيها من مزالق ومخاطر .

ويقول الغزالى إنه بعد أن فرغ من علم الفلسفة وتزييفه وعرف أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب انتقل إلى تعاليم الباطنية التى شاعت فى عصره فطلب كتبهم وجمع مقالاتهم ، ودرسها دراسة فاحصة ، وأخذ فى تقرير شبهاتهم إلى أقصى الإمكان . ثم أظهر فسادها بغاية البرهان . وقد وقف عند قولهم بأنه لا بد من معلم معصوم يعلِّم الأمة . وارتضى هذا القول ، ولكن على أن المعلم المعصوم هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا الإمام كما تقول الباطنية . وقال إنه لا

يضر هذا المعلم وأمته أن يموت بعد أن أكمل التعليم وبث دعاته فى البلاد . وهو فى ذلك يرد على فكرة الغيبة التى يؤمن بها بعض الشيعة . ووقف أيضاً عند رفضهم للاجتهاد والاقتصار على النص المأثور عن أئمتهم ، وقال إننا نحكم بالنص عند وجوده فإن لم نجده اجتهدنا . وقال إن الاجتهاد ضرورى لسبب بسيط ، وهو أن « النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية . فلا بد من الاجتهاد فى إرجاع الوقائع الخاصة إلى النصوص العامة » . فعلى العاقل أن يجتهد رأيه فيما وراء قواعد العقائد من التفصيل . ويقول إنه ليس الغرض الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك فى كتب أخرى . بل « المقصود أن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء .. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم .. ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا » . وبذلك ينفض يده من الباطنية كما نفضها من الفلاسفة قبلهم والمتكلمين . ولا يبقى أمامه إلا طرق الصوفية . فيسلكها قائلا :

« إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله . وكان العلم أيسر على من العمل : فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل " قوت القلوب " لأبى طالب المكى وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشايخهم . حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية . وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم . بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون " الإنسان " صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر .. وبين أن يكون " الإنسان " سكران . بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه . وهو سكران وما معه من علمه شىء . والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شىء .

والطبيب فى حالة المرض يعرف حدّ الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة . وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا . فعلمت يقيناً أنهم "الصوفية" أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالاسبيل إليه بالسماع والتعلم . بل بالذوق والسلوك . وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية إيمانٌ يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرّر " متحرّى " بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكفّ النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكُنْه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمسٌ فى العلائق ، وقد أحدقت بى من كل الجوانب ، ولاحظت أعمالى — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبلٌ على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلبُ الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرُفٍ هار ، وأنى قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافى الأحوال . فلم أزل فى التفكر مدة وأنا بعدُ على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدّم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جُنْد الشهوة حملة ، فتفترها عشية : فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيلَ الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن

هذه العلائق فمتى تقطع ؟ . . ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض "وظيفته فى المدرسة النظامية" والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة » .

وعلى هذا النحو يصف الغزالى ما ألمّ به من صراع نفسى عنيف نشأ عن حيرته ، فهل يضحى بجاهه العريض ويرحل عن بغداد أو يظل فى هذا الجاه الذى أكسبه إياه توفيقه فى الدرس والتعليم ؟ . ووقع مدة ستة أشهر فريسة هذين الباعثين القويين . فيوماً يعزم على الخروج ويوما ينثنى عن هذا العزم ، ويوماً يقدم رجلا ويوماً يؤخر أخرى . حتى جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، فلم يعد يمكنه التدريس ، بل لم يعد يمكنه النطق بالكلام . وأورثه ذلك حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم والرغبة فى الأكل والهناءة فى الشراب ، وضعفت قواه ضعفاً تاماً ؛ وسُدَّت أمامه جميع الأبواب ولم يبق أمامه مفتوحاً إلا باب التصوف ، فسلكه راضياً مرضياً ؛ يقول :

« ثم لما أحسست بعجزى . وسقط بالكلية اختيارى . التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهّل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ؛ وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبّر فى نفسى سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . . ففارقت بغداد وفرّقت ما كان معى من المال ، ولم أدّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال . . ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية .

فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، وأصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى . ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى . ثم تحركت فىّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه . فسرتُ إلى الحجاز . ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، وآثرتُ العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر . . ودمتُ على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها » .

وهنا تنتهى رحلة الغزالى العقلية . فقد تخلص عقله من الأبحاث الملتوية التى تعمقها فى بيئات المتكلمين والمتفلسفة والباطنية ، ووجد خلاصه أخيراً فى بيئة المتصوفة ، حيث يتحول الشعور الدينى إلى تجربة ذاتية قلبية ، تُدْرَك بالذوق لا بالعقل ، وقد أخذ يشيد بالتصوف وأصحابه قائلا :

« إنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسنُ السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق . بل لو جمع عقلُ العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة . . أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . ومفتاحها . . استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله . . ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات . . وكراماتُ الأولياء على التحقيق هى بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد . حتى قالت العرب إن محمداً عشق ربه » .

وواضح من ذلك أنه يربط بين التصوف ونبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن تصوفه هو الذى هداه إلى حقيقة النبوة . فالرسول هو منبع الحياة الدينية الروحية ، ومنبع النور الذى يفيض على المتصوفة من أمثال الغزالى . ومعنى هذا أنه عرف حقيقة النبوة عن طريق شعوره الشخصى بأشياء هى من خصائص الرسول والرسالة ، يقول : « ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها ». ثم يعقد فصلا خاصاً لها يبين فيه أنها تدرك بدراسة القرآن والأحاديث وأحوال الرسول كما تدرك بذوق المتصوفة وما يشاهدونه فى أنفسهم من خصائص النبوة .

وشعر الغزالى شعوراً عميقاً فى نفسه بأنه مصلح دينى وأن عليه أن يمكن عقيدة الصوفية فى نفوس الناس ، ولذلك تحركت فى نفسه عوامل الرجوع إلى نشر العلم ، فأخذ فى نشر كتبه وعلى رأسها كتابه « إحياء علوم الدين » . وخرج من عزلته ، ورحل إلى نيسابور ، وأخذ يعلم الناس ، ويشتغل بالتدريس ، وفرق بين ما يدرسه الآن وما كان يدرسه سابقاً فى بغداد ، فهو كما يقول إنما يدرس « العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه » مبتغياً أن يصلح نفسه وغيره . ويختم كتابه بقوله : « نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه . . »

٣

بعد الغزالى

رأينا الغزالى يترجم لحياته العقلية وتطورها ، حتى انتهى إلى طريق التصوف ، فألقى عصاه عنده ، وقنع بما وجد فيه من نور أضاء به قلبه . ولا نجد بعده متصوفاً يترجم حياته على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع من تراجم المتفلسفة مثلا ، إنما يعنى المتصوفة كما رأينا فى أول هذا الفصل بوصف سيرتهم الصوفية وقد يذكرون بعض تجاربهم ، وقد تتحول بعض كتبهم إلى تجارب خالصة ، ولكنها جميعاً ليست من الترجمة الشخصية بمعناها التام ، وهى الترجمة التى تعنى بالشخص ووصف حياته وحقائقها بكل ما صادفه فيها من شر وخير وبؤس ونعيم.

ويكاد يكون لكل صوفى حديثه عن تصوفه وبعض تجاربه ، وسنكتفى ممن جاءوا بعد الغزالى بثلاثة هم ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م وابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م والشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ /١٥٦٥ م. أما ابن الفارض ، فقد خلف قصيدة سماها نظم السلوك ، وهى تائيته الكبرى التى يصور فيها معراجه الروحى وما عاناه فى هذا المعراج من شدائد ، حتى وصل إلى مقام الاتحاد بالذات العلية ، ويقص لنا ذلك قصصاً بديعاً ، واستمعْ إليه يصف ما تحمله من مشقة وعناء فى أول عهده بالحب الإلهى ، يقول :

ونفسيَ كانت قبلُ لوامةً متى ... أطعها عصتْ أو أعص كانت مطيعتى
فأوْرَدْتها ما الموتُ أيسرُ بعضِه ... وأتعبتها كيما تكون مريحتى
وكلفتها ، لا بل كفلتُ قيامها ... بتكليفها حتى كلفتُ بكلفتى
وأذهبت فى تهذيبها كل لذة ... بإبعادها عن عادها فاطمأنت
وكل مقام عن سلوك قطعته ... عبوديةً حققتها بعبودة

ويخرج من هذا الإجمال فى إيراد نفسه موارد الهلكة ، حتى تسكن إلى الطريق ، يخرج من ذلك إلى بيان أعمال العبادة التى أخذها بها ، وهى النسك والفقه ، والصوم ، وتلاوة القرآن بالليل ، وترتيل الأوراد ، وكثرة الاعتكاف ، والسياحة فى الأرض ، والقناعة والزهد ، ورياضة نفسه على العشق والمحبة، يقول:

رجعتُ لأعمال العبادة عادةً ... وأعددتُ أحوال الإرادة عدّتى

وعدتُ بنسكى بعد هتكى وعدت من ... خلاعة بسطى لانقباض بعفة

وصمتُ نهارى رغبةً فى مثوبة ... وأحييت ليلى رهبةً من عقوبة

وعمّرْتُ أوقاتى بورْدٍ لـوارد ... وصمتٌ لسَمْتٍ واعتكاف لحرمة

وبنتُ عن الأوطان هجران قاطع ... مواصلة الإخوان واخترتُ عزلتى

وأنفقت من يسر القناعة راضياً ... من العيش فى الدنيا بأيْسَرِ بُلْغَةِ

وهذبت نفسى بالرياضة ذاهباً ... إلى كشف ما حُجْبُ العوائد غطت

وعلى هذا النحو نجد ابن الفارض فى تائيته يصور لنا سيرته الشخصية فى التصوف وما أخذ به نفسه فى حياته العملية .

وتكاد تكون كتب ابن عربى كلها تصويراً لسيرته الصوفية ، التى تقوم من جهة على الإيمان بوحدة الوجود كما تقوم على المكاشفات والمشاهدات التى ترفع الحجب عما وراء الغيب .

ومعروف أن ابن عربى أندلسى الأصل وأنه وجد طريقه إلى التصوف على شيوخ من بلده ، ثم ساح فى العالم الإسلامى وبلاد الروم سياحة متصلة ، يتعلم فيها ويعلم ويناقش . وتكثر عنده الرؤى والأحلام ، ومن أوائل أحلامه قوله: إنه « فى ليلة من الليالى تزوج زواجاً صوفيًّا بكل نجوم السماء والحروف» ويقول إن بعض العارفين فسّر له ذلك بأن الله يفتح له العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب . وقد جاور فى مكة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وفى هذه المجاورة تعلق بفتاة تسمى « نظاماً » وأوحت إليه بديوانه « ترجمان الأشواق.» وظاهره عشق بهذه الفتاة ، وباطنه معان صوفية يقصد بها العشق الإلهى والفناء فى الذات العلية . ومن

أهم كتبه « فصوص الحكم » وهو يعرض فيه إيحاءات يردّها إلى الأنبياء الذين أرسلوا للناس ، وكلها تقطع وتشهد بفكرة وحدة الوجود . وأوسع كتبه وأجمعها لآرائه ومكاشفاته وأحلامه « الفتوحات المكية » وهو يذكر فى فاتحته هذه الرؤيا التى رآها حين بدئه فى الكتاب . يقول بعد التحميد :

« الصلاة على سر العالم ونكتته . ومطلب العالم وبغيته ، السيد الصادق ، المدْلج إلى ربه الطارق ، المخترق به السبع الطرائق "السموات" ليريه حين أسرى به إليه ما أودع من الآيات والحقائق ، فيما أبدع من الخلائق ، الذى شاهدته عند إنشائى لهذه الخطبة فى عالم الحقائق ، فى حضرة الجلال ، مكاشفة قلبية ، فى حضرة غيبية . . شاهدته صلى الله عليه وسلم فى ذلك العالم سيداً معصوم المقاصد ، محفوظ المشاهد ، منصوراً للناس مؤيداً وجميع الرسل بين يديه مصطفون ، وأمته التى هى خير أمة أخرجت للناس عليه ماتفون ، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافّون ، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صافّون ، والصدّيق عن يمينه الأنفس ، والفاروق عن يساره الأقدس ، والختم عليه السلام بين يديه قد جثا ، يخبره بحديث الأنثى ، وعلىّ صلى الله عليه وسلم يترجم عن الختم بلسانه ، وذو النورين مشتمل برداء حيائه مقبل على شانه ، فالتفت السيد الأعلى - والمورد العذب الأحلى ، والنور الأكشف الأجلى ، فرآنى وراء الختم ، لاشتراك بينى وبينه فى الحكم ، فقال له السيد : هذا عديلك ، وابنك وخليلك ، انصب له منبر الطرقاء بين يدىّ . ثم أشار إلىّ : أن قم يا محمد عليه ، فأثنِ على من أرسلنى وعلىّ ، فإن فيك شعرة منى ، لا صبر لها عنى ، هى السلطانة فى ذاتيتك ، فلا ترجع إلىّ إلا بكليتك ، ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء ، فإنها ليست من عالم الشقاء . فما كان منى بعد بعثى شىء فى شىء إلا سَعِد ، وكان ممن شُكر فى الملأ الأعلى وحُمد . فنصب الختم المنبر فى ذلك المشهد الأخطر ، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر : هذا هو المقام المحمدى الأطهر ، من رقى فيه فقد ورثه ، وأرسله الحق فى العالم حافظاً لحرمة الشريعة

وبعثه . ووهبت فى ذلك الوقت مواهب الحكَم ، حتى كأنى أوتيت جوامع الكلم ، فشكرت الله عز وجل وصعدت أعلاه ، وحصلت فى موضع وقوفه صلى الله عليه وسلم ومستواه ، وبُسط لى على الدرجة التى أنا فيها قميص أبيض ، فوقفت عليه ، حتى لا أباشر الموضع الذى باشره صلى الله عليه وسلم بقدميه تنزيهاً له وتشريفاً .. ثم رُددت من ذلك المشهد النومى العلىّ ، إلى العالم السفلىّ ، فجعلت ذلك الحمد المقدس خطبة الكتاب ، وأخذت فى تتميم صوره » . وتفيض كتابات ابن عربى على هذه الشاكلة بتجارب روحية يستمدها حيناً من أحلامه وحيناً من يقظته ، وجميعها تعبر عن انجذاب صوفى عنيف .

وأما الشعرانى فإمام متصوفة مصر فى أوائل العصر العثمانى ، وقد خلف كثيراً من المؤلفات فى التصوف وغيره ، وتمتاز مؤلفاته الصوفية بالبساطة ، وهى تمتلىء بالحديث عن نفسه وشيوخه ومن سبقهم ، يورد ذلك فى سذاجة .

ويهمنا هنا كتابه « لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق » فإنه قصّ علينا فى هذا الكتاب سيرة حياته مجملة ، ثم أخذ يسرد مناقبه وأخلاقه وفى العادة يبدأ كل خلق وكل منقبة بقوله : ومما منّ الله علىّ به كذا أو ومما أنعم الله علىّ كذا ، ثم يذكر المنقبة أو الفضيلة .

ونراه فى الباب الأول يتحدث عن نسبه ، ويقول إنه من ذرية محمد بن الحنفية ، وإن جده الأعلى كان سلطاناً لبلاد تلمسان فى المغرب ، وتزهد أحد أبنائه وتبع أبا مدين التلمسانى الإمام الزاهد ، فأرسله فى بعض أتباعه إلى مصر ، واستقر فيها ، وكان حفيده أحمد ينزل من قرية « ساقية أبى شعرة » بإقليم المنوفية . وإليها ينسب الشعرانى واسمه عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن الشيخ موسى الذى وفد على مصر كما أسلفنا من المغرب ، ويظهر أن أبناءه كانوا مشايخ طرق من بعده .

وحفظ الشعرانى القرآن الكريم فى قريته وواظب على الصلوات الخمس منذ كان فى الثامنة من عمره ، ويذكر كرامة حدثت له وهو صغير فإنه سبح فى

النيل وأوشك على الغرق ، لولا تمساح امتد تحت رجله ، فوقف عليه ؛ حتى استراح ، ثم تابع سباحته ، ونجا . وهاجر من الريف إلى القاهرة لقراءة العلوم وحفظ المتون والكتب ، ويحصى ما حفظه من مثل ألفية ابن مالك والتوضيح لابن هشام وجمع الجوامع للسيوطي وجميعها فى النحو ، ومثل تلخيص المفتاح فى البلاغة وكتاب المنهاج للنووى فى الفقه والشاطبية فى القراءات . ويذكر لنا أنه جلس إلى حلقات الشيوخ الذين كانوا يشرحون هذه الكتب والمتون من مثل الشيخ زكريا الأنصارى . ويسرد علينا ثبتاً طويلا بالشروح التى قرأها ،فى مختلف العلوم والفنون ، ويقول إنه كان يأخذ بالأحوط فى دينه وأنه لم يأخذ الرخص إلا بالطريق الشرعى ، وإنه ما زال حتى تبحر فى الفقه على جميع المذاهب وألف فيه ، وأعجب الفقهاء المختلفون بتأليفه ، وأذن له الشيخ زكريا الأنصارى أستاذ عصره بتدريس علم الفقه والتفسير والتصوف ، وأخذ يكثر من مطالعته لكتب الشريعة وآلاتها من حديث وأصول ، كما أخذ يكثر من التأليف .

ولما تبحر فى علوم الشريعة قاده هذا التبحر إلى مجاهدة نفسه وسلوك طريق التصوف ، وسار فى الطريق أولا من غير شيخ يهديه ، وكان يطالع كتب المتصوفة من مثل رسالة القشيرى وقوت القلوب لأبى طالب المكى والإحياء للغزالى ، ويقول إن من جملة ما جاهد به نفسه حينئذ أنه كان يجعل حبلا فى سقف خلوته محوراً على عنقه إذا جلس ولا يصل إلى الأرض لو اضطجع . فكان يجعله فى عنقه من العشاء إلى الفجر . وظل على ذلك سنين ! يقول :

« ولم يكن لى بحمد لله علاقة دنيوية تعوقنى عن المجاهدة . . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سدَاى ولُحمتى ، فأغنتنى بحمد الله عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى منذ بلغت . ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا . وعرضوا " الولاة " علىّ الألف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئاً ، وكان المباشرون والتجار يأتونى بالذهب والفضة ، فأنثرهما فى صحن جامع الغمرى !

"الجامع الذى كان يتنسك فيه" فيلتقطهما المجاورون . وتركت أكل لذيذالطعام؛ ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين ، وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ! . . وضاقت عليّ الأرض كلها ونفرت من الناس ونفروا منى . وكنت أقيم فى المساجد المهجورة والأبراج الخراب مدة طويلة . . وكنت أطوى الثلاثة الأيام وأكثر ، ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة . وضعفت بشريتى . وقويت روحانيتى ، حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمرى ! فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى وطلبها الصعود إلى عالمها ، فإنه لا يثقل الإنسان فى الأرض إلا كثرة الشهوات . . ولما غلب عليّ طلبُ العزلة عن الناس تنكرت منى جميع قلوب أصحابى ، ونفروا منى . حتى كأنهم لا يعرفوننى من ضيق وقتى عن مباسطتهم بالكلام اللغو وعدم المجالسة . . وكنت لا آكل قط طعام فقير ، لا كسب له ؛ من المتعبدين فى الزوايا . من غير كبير اشتغال ، خشية أن يكون ممن يأكل بدينه وهو لا يشعر . وكذلك كنت لا آكل طعام قاض ولو كان من أهل الدين لما عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس . . ثم طويت عن طعام جميع الناس فلا آكل إلا عند أوائل درجة الاضطرار ؛ وذلك حين لا تجد أمعائى شيئاً تشتغل به ؛ فيلذع بعضها بعضاً . وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ، ثم أصلى الصبح ؛ وأذكر " الله " إلى ضحوة النهار . ثم أصلى الضحى ، وأذكر حتى يدخل وقت الظهر فأصلى الظهر . ثم أذكر إلى العصر ومن صلاة العصر إلى المغرب ومن صلاة المغرب إلى العشاء وهكذا . ومكثت على ذلك نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى بربُع القرآن بين المغرب والعشاء ، ثم أتهجد بباقيه ، فأختمه قبل الفجر . وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة ! . وكان نومى غلبة تخطف رأسى خطفة بعد خطفة وخفقة بعد خفقة . وكثيراً مايغلب عليّ النوم فأضرب أفخاذى بالسوط . . ولا شك

أن وقوف المحب بين يدى الله عز وجل فى الظلام مع تألم جسمه بالضرب أحسن عنده من نومه عن ربه عزوجل حال تجليه » .

ويذكر الشعرانى بعد وصفه لما أخذ به نفسه من عناء شاق فى أول سلوكه للطريق أنه وجد فى نفسه ارتياحاً للاجتماع بمن سلك هذا الطريق قبله . فاجتمع بخلائق منهم لا تحصى . وأهم من اجتمع بهم ثلاثة على المرصفى ومحمد الشناوى وعلى الخوّاص . ولزم الأخير ، وأذاقه كثيراً من حلاوة الطريق وأحواله . ودخل به فى مجاهداته ومتاهاته .

وتتعاقب أبواب الكتاب الذى يقع فى مجلدين ضخمين شارحةً مناقب الشعرانى وفضائله وما كان يلتزمه من مجاهدات تقوم على الزهد فى الدنيا وطيباتها والتوكل على الله مع الصلاة ، والتسبيح ، وتلاوة القرآن الكريم . ويعرفنا فى أثناء ذلك بزاويته وكثرة المريدين له وما كان يأخذهم به من آداب . ويبسط أمامنا كل سيرته فى صلته بالحكام والعلماء والمتصوفة وعامة المصريين من الفلاحين وغيرهم .

ويمزج الشعرانى فضائله بفضائل المتصوفة من شيوخه ومن سبقهم ، حتى ليتحول الكتاب إلى بحث واسع فى مناقب هذه الطائفة . وقد حمل حملة شعواء على العلوم الفلسفية ، وفَضّل علوم التصوف الوهبية على علوم الشريعة الكسبية ! ولا يترك واردة ولا شاردة فى حياته الشخصية إلا ويقصها ، حتى معاملته لزوجه وخادمه ، وهو يقص ذلك فى بساطة وسذاجة .

وتتجلى هذه البساطة أيضاً فيا يرويه من مكاشفات المتصوفة ومشاهداتهم ، وما يقصه من ذلك عن نفسه وأنه رُفع عنه الحجاب ! ويقول إن ما يجرى على يديه من كرامات لم يقصده ، وإنما أجراه الله جل وعز وحده . ويعرض طائفة من رؤاه ، ويقول إن الله شرفه برؤياه مرتين وأنه اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم وبعيسى وبالخضر وبالقطب عليهم السلام مراراً . ويصف كثيراً من

الخوارق التى شاهدها والتى سمع بها عن الصالحين قبله ، ويكثر من خوارق أستاذه على الخوّاص والشيخ المتبولى . وكثير منها يمكن تعليله ، وكثير يستعصى على التعليل . والكتاب بذلك كله ترجمة شخصية وافية لسيرة الشعرانى وسلوكه وكل ما أخذ به نفسه من أفعال وأقوال .

الفصل الرابع

تراجم سياسية

١

رجال السياسة يكتبون مذكراتهم

لعل أقدم صورة لهذه المذكرات السياسية والحربية ما كان يقصه أبطال العرب فى الجاهلية والفتوح الإسلامية عن مغامراتهم وما قاموا به من بطولة خلال المعارك والوقائع المختلفة . وقد احتفظت كتب التاريخ وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير من هذا القصص ، حيث نجد الرواة يروونه مباشرة عن أصحابه واصفين أحوالهم وأحداثهم الحربية .

وأخذ العرب منذ العصر العباسى يسجلون هذا القصص وما يتضمن من أخبار ، كما أخذوا يكتبون التاريخ : تاريخهم وتاريخ الأمم من حولهم . وعُنوا عناية واسعة بدولهم ونشأتها وما مر بها من أحداث ، وكانوا يستمرون بتاريخهم إلى عصورهم ، فيكتبون عنها كتابة المشاهد الذى لا يترك شاردة إلا يسجلها تسجيلا دقيقاً ، وكأنى بجمهورهم تحول إلى آلات رصد كبيرة . وهى آلات دقيقة ، قلما أصابها وهن أو ضعف بسبب عقيدة . وكل من يقرأ فى الطبرى ومسكويه والبلاذرى واليعقوبى والمسعودى وابن الأثير وابن حيان وابن تغرى بردى وابن الخطيب وابن خلدون يُكبر مؤرخى العرب ، ويشهد بسلامة حاستهم التاريخية ، فقد أودعوا كتبهم التاريخ السياسى العربى بكل حقائقه ووقائعه .

ولم يكن رجال السياسة فى أول الأمر يعنون بكتابة مذكراتهم عن الأحداث السياسة والحربية التى اشتركوا فيها أو كانوا سبباً فعّالا من أسبابها ، مكتفين بما يكتبه معاصروهم من المؤرخين فى إنصاف وعدالة تامة فى الحكم . غير أننا لا نصل إلى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حتى نجد بعض السياسيين يكتبون مذكراتهم ، وكأنهم يريدون أن يضعوا تحت أعين المؤرخين الأحداثَ كما شاهدوها و بمقدار ما تدخلوا فيها ليكون حكمهم آكد وأوثق .

ومن أوائل من عنوا بذلك المؤيد فى الدين داعى دعاة الفاطميين أو زعيم هؤلاء الدعاة المتوفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م واسمه هبة الله بن داود بن موسى ، بدأ دعوته لهم فى مسقط رأسه « شيراز » إحدى بلدان فارس ، وما زال يعلو فى رتبته عندهم ، حتى جعلوه زعيم دُعاتهم .

وهو فى مذكراته التى تسمى « سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة » يقص علينا مغامراته فى سبيل الدعوة للفاطميين خلفاء مصر المشهورين ، لا فى بلدانهم التى كانت تستظل بحكمهم ، وإنما فى شيراز وبلاد فارس ، ثم فى أعالى الشام والموصل والعراق . والكتاب بذلك ليس سيرة كاملة له ، وإنما هو مذكرات عن جهوده السياسية فى حقبة من حياته امتدت من سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ إلى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨ م أما حياته قبل هذه الحقبة وبعدها فلم يعن بها أى عناية .

ونراه يذكر لنا فى مقدمة السيرة بأنه إنما يكتبها ليقف الناس على ما كان من جهوده فى إدخال أبى كاليجار البويهى ملك فارس وهمذان فى العقيدة الفاطمية الشيعية ، وما سبق ذلك ولحقه من قيام فتن ضده هناك ، فقد أوغر العلماء والقضاة صدرَ السلطان عليه ، وبعد مِحَنٍ رضى عنه وقربه منه لما رأى من دعوته فى قلوب « الديلم » وهم أهمُّ جنده ، ولما أظهر من مهارة وتفوق فى مناظرته لبعض علماء أهل السنة يقول :

« فسكنَ جأشُ الملك واطمأن قلبه ، وقال : إنى أسلمتُ نفسى ودينى

إليك ، وإنى راض بجملة ما أنت عليه ، فاستقر الأمر على أن أجتمع به كل ليلة جمعة للمذاكرة والمفاتحة ، فكنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضى هزيع من الليل ، وهو يسألنى عن جميع ما يهجس فى نفسه ، وكنت أجيب عنه جواباً يظهر أكثره تباشير الفرح فى وجهه ، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك ، فربما حرّك رأسه يعنى أنه جيد . فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل فى مسامعه مثله . قصداً منى لتندمه على فـرَطاته ، وإقامة الحجة عليه بكون الحق فيما كان يحسبه ضلالا والرشد فيما كان يظنه غياً . وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يُبْتَدَأ بقراءة شىء من قوارع القرآن : ويثنى بباب من كتاب الدعائم " أحد كتب الدعوة " ويثلّث بأن يسأل عما يريده فأجيبه عنه . وأختم بالتحميد والخطبة لمولانا الإمام "المستنصر الفاطمى الخليفة بمصر إذ ذاك" خـلّد الله ملكه فى ولده من بعده : ثم أنصرف إلى منزلى » .

وظل الأمر بينه وبين أبى كاليجار على هذه السيرة ، حتى ذاع وانتشر بين الرعية أن السلطان دخل فى الدعوة الفاطمية فغضب أهل السنة ، وغضب معهم الخليفة العباسى ، وهدده أن يستعين ضده بالسلجوقيين أصحاب آسيا الصغرى ، وكان سلطانهم يمتد إلى الموصل ، ويوشك أن يقضى على البويهيين ، فخشى أبو كاليجار مغبّة اندفاعه ، وأوحى إلى المؤيد فى الدين أن يفرّ بنفسه ويخرج من دياره سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م .

ويصل المؤيد إلى مصر بعد مشقات ومعاناة ، فلا يجد ما كان يظنه من الترحيب به ، بل تزورّ عنه الوجوه ، يقول : « ولما وصلت بالحضرة الشريفة .. وكنت استصحبت إليها من البضاعة ما كانت تحدثنى نفسى أننى به أفلح . . ومنه أطأ فوق النجوم بقدمى لكون متجرى فيها ربيحاً وسعيى نجيحاً . . فكشف لى الزمان عن كون البضاعة التى كان رجائى فيها هذا الرجاء بائرة كاسدة مسترذلة مستذلّة ، فأُسقط فى يدى وعُمِّىَ على طريقُ رشدى » .

ويقصد المؤيد ببضاعته جهوده فى الدعوة وما صنعه ضد العباسيين فى فارس

وفى أثناء طريقه وكيف استمال أباكاليجار إلى المستنصر وأدخله فى طاعته. وكانت مصر والدعوة الفاطمية فيها حينئذ يعانيان من فساد الحكم ، وكان الخليفة ألعوبة فى أيدى وزرائه ، وكانت أمه ووكلاؤها يستأثرون بالسلطان من دونه ، ويقص علينا ذلك كله المؤيد ، حتى ليقول : « لا خير من المقام على باب من يكون محجوراً عليه ، ويكون مقاليد أموره بيدى غيره لا بيديه » .

ويترك المؤيد باب الخليفة مؤقتاً ، ولكن لا ليخرج من الدعوة ، بل ليعمل فيها ثانية ، وليشترك فى مؤامرة كبرى ضد الخليفة العباسى ، إذ يلحق بالبساسيرى فى العراق ، وما يزال يؤلب الإمارات فى الشام والموصل ، محاولا إخراجها من الدعوة العباسية إلى الدعوة الفاطمية . ويظل فى ذلك حتى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م فيعود إلى مصر ، ويتم البساسيرى المؤامرة ، فيستولى على بغداد ويخلع الخليفة العباسى القائم بأمر الله ويخطب للمستنصر بإمرة المؤمنين على منابر العراق سنة . ولكن المستنصر قعد عن نصرته . فلم تمكث دعوة البساسيرى طويلا بل سرعان ما قضى عليها السلجوقيون .

وهذه السيرة أو هذه المذكرات طريفة لأنها ترينا كيف كان يعمل دعاة الفاطميين سرًّا . وكيف كانوا يحركون المؤامرات فى سبيل دعوتهم ، وقد كشفت لنا عن جميع المقدمات التى سبقت استيلاء البساسيرى على بغداد وكيف قُطعت الدعوةُ العباسية لمدة عام على منابر العراق . وكل ذلك وثائق تاريخية جليلة . وهى تقع فى نحو مائة وثمانين صحيفة من القطع الكبير . وليس هنا مكان تفصيل ما اشتملت عليه هذه الوثائق من العقائد الفاطمية ، وقيمتها فى هذا الجانب كبيرة.

ومن أهم المذكرات السياسية التى كتبت فى هذا القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كتاب « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة » ألفه عبد الله بن بلقين آخر أمراء بنى زيرى على هذه البلدة ، ومعروف أن المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين خلعوه من عرشه سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ونفوه إلى المغرب فعاش فى آغمات ، وعكف على تأليف هذا الكتاب . ولم يخلعه

المرابطون وحده ، بل خلعوا جميع أمراء الطوائف وملوكهم ما عدا بنى هود فى سرقسطة . وبذلك دخلت الأندلس فى حوزتهم وأصبحت تابعة لهم. ولبلادهم وسلطانهم فى المغرب مدة خمسين عاماً تقريباً ، حتى إذا غلبت دولةُ الموحِّدين عليهم تحولت إليهم الأندلس بجنَّاتها وبلدانها .

وبنو زيرى آباء عبد الله بربرٌ من صنهاجة بالمغرب ، وهم مثل غيرهم من أمراء الطوائف ، قاموا على أنقاض الدولة الأموية ، وأسسوا لهم إمارة فى غرناطة ، توارثها الأبناء عن الآباء طوال القرن الخامس الهجرى ، واستطاعوا أن يضموا إليهم مالقة . واعتلى عبد الله بن بُلقين عرشها سنة ٤٦٦هـ /١٠٧٣ م بينما اعتلى أخوه تميم عرش مالقة .

وعُرفت مدة أمراء الطوائف بكثرة الفتن الداخلية وانتقاض الأمراء بعضهم على بعض . وانتقاض ولاتهم عليهم ، وكثرة حروبهم ومناوشاتهم مع جيرانهم من المسيحيين . وكان ألفونس السادس لهم بالمرصاد ، واستطاع أن يفرض إتاوة على كثيرين منهم . مثل عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، واستولى على طليطلة من بنى ذى النون . واضطر أمراء الطوائف تحت ضغطه أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فى المغرب ، وأغاثهم يوسف ، وأوقع بألفونس هزيمة منكرة فى « الزلاّقة » وتطورت الحوادث ، ورأى يوسف من الضرورى الاستيلاء على هذه الإمارات حتى تقف البلاد صفاً واحداً أمام الفرنج وكان ذلك تدبيراً سديداً . ولولاه لخرج العرب من الأندلس مبكرين .

وعبد الله بن بلقين فى كتابه أو مذكراته يسجل تاريخ أسرته من بنى زيرى تاريخاً دقيقاً . وهو تاريخ سياسى ملىء بالملاحظات الطريفة ، عن هذه الحقبة من تاريخ الأندلس ، فقد عرض بالتفصيل تاريخ دولتهم وعلاقاتها بجيرانها من الأندلسيين والمسيحيين فى السلم والحرب .

وأكثر الكتاب ترجمة سياسية له ولحكمه ، فهو بذلك من كتب التراجم الذاتية ؛ وقد تحرَّى فيه الصدق عن نفسه وعن جيرانه ؛ ووصف وصفاً مسهباً ما لقى

من مشكلات فى إمارته وما دُبِّرَ ضده من ثورات وما دخل فيه مع المسلمين والمسيحيين من حروب ومعاهدات ومناقضات . وهو فى أثناء ذلك يعرض علينا مسرح الأندلس بكل ما كان فيه من صور انحلال سياسى واجتماعى هيأت لاستعلاء كلمة ألفونس السادس فى أول الأمر على من يجاوره من الأمراء والمسلمين . وأعدت ثانية لاستيلاء يوسف بن تاشفين على ولايات هؤلاء الأمراء وإنهاء عهدهم بالأندلس .

وفى الكتاب مادة وفيرة لمن يريدون أن يؤرخوا عصر أمراء الطوائف تاريخاً صحيحاً وثيقاً ، وهو فى حقيقته مجموعة من الوثائق النفسية عن هذه الحقبة . بدأه بفصل عن القواعد التى ينبغى على المؤلف اتباعها فى تأليفه ، وجعل على رأسها مجانبة الهوى وابتغاء الصواب والحقيقة ، وأعلن أنه لن يعنى بسجع كلامه وحلاه اللفظية ، حتى لا يجور اللفظ والسجع على المعنى . ثم استطرد إلى بيان حقيقة الإسلام وقصور القياس دون عون من الوحى ؛ وتحدث عن ضرورة التعليم والتجربة . وقال إنه حفظ القرآن وألم بصنوف من الآداب ، ثم تحول به جده إلى أمور السياسة ، فوقفه على وجوهها ومرنه على جميع أعمالها ، حتى يحسن فيما بعد تدبيرَ شئون مملكته . وكان أبوه مرشحاً من قبله لولاية العهد . ولكن المنية اخترمته ، فنقل جده ولاية العهد إليه ، وعنى بتربيته السياسية عناية شديدة .

ويبين لنا عبد الله صعوبة الإنصاف التاريخى وأن الناس لا يجمعون على مدح أحد ولا ذمه ، فرضا العامة لا يدرك ، ولما كان الوالى على شئون الناس يحكم فيما بينهم كان من يحكم له يخرج راضياً ، ومن يحكم عليه يخرج ساخطاً . ومن هنا لا تتفق العامة على مدح شخص . وواجب على المؤرخ أن يميز الأخبار وأن لا يأخذ بكل ما يسمعه من الناس .

ونحن لا نمضى فى قراءة الكتاب حتى نعجب بشخصية هذا المؤلف . إذ حاول أن يتخلص من كل هوى وعصبية ؛ ليسجل لنا تاريخ بلاده وإمارة أهله وإمارته هو نفسه تسجيلا مستبصراً فيه ، مبتغياً الحق ما أمكنه . وحاول أن

يبرر سياسته فى مراضاة ألفونس ودفع الإتاوة إليه . وهو حتى فى هذا التبرير لا يتحيز ، وإنما يعرض الحوادث بجميع تفاصيلها لتحكم . وأنت دائماً تحكم له بأنه كان حازماً فى سياسته ، وأن ما صنعه كان الوجه الذى ينبغى أن يختاره العاقل الحصيف .

ويعرض علينا كل ما كان من مؤامرات وخيانات بين أمراء الطوائف وكيف انتقضت كلمتهم أمام ألفونس ، حتى أصبحوا مرعى خصباً له : وكان قد فغر فاه ، وابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وهو على وشك أن يبتلع بقية الإمارات . وأسهم عبد الله فى موقعة الزلاّقة ، ووصف لنا نزول المرابطين الأندلس بدعوة من أمرائها ، كما وصف لنا كل الظروف التى أودت بملكه وملك مَنْ حوله من الأندلسيين .

والحق أن هذه المذكرات مجموعة من الأضواء النفاذة سُلِّطت على عصر أمراء الطوائف بالأندلس ، فإذا هى تبدد كل ظلام فيه . وإن من الواجب أن يعيد المؤرخون كتابة هذا العصر على هدى تلك المذكرات . وليس هنا مجال الحديث عما تضيفه هذه المذكرات إلى الكتب التاريخية من معلومات جديدة ، ويكفى أن كاتبها كان من أمراء العصر الذين شاركوا فى أحداثه ، وقد رأى تحت عينه لمدة نحو عشرين عاماً سفينة هذه الإمارات تتجاذبها العواصف من كل جانب ، من الداخل والخارج ، حتى هيأ القدر لها رباناً جديداً فانضوت تحت لوائه ، وأمكن لمن تحملهم أن يظلوا هناك قروناً متطاولة .

ونمضى إلى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) فنلتقى بعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . ولأولهما كتاب يسمى « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » . وعنوان الكتاب لا يدل على حقيقته ، فهو ليس طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء ، وإنما هو فى أخباره هو نفسه ، وبعبارة أدق هو ترجمة ذاتية له . وهى ترجمة سياسية .

ويعرفنا عمارة فى أوائل كتابه بمولده ونشأته . فهو من تهامة اليمن ، من بلدة يقال لها مرْطان ، وهو قحطانى مَذْحِجى من سعد العشيرة ، كان آباؤه سادة قومه ، وكان منهم العلماء المصنفون . ولد سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م ولما شب أرسله أبوه إلى زَبيد ليتفقه فى دينه . ومن ثم تعلق بالتجارة ، وشدا الشعر ، واتصل بملوك اليمن وآل زريع خاصة . وحج سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م فبعث به صاحب مكة رسولا إلى الفائز خليفة مصر الفاطمي حينئذ . فقدمها سنة ٥٥٠ هـ ، ١١٥٥ م وكان الوزير بها طلائع بن رُزّيك ، فاستقبله فى قاعة الذهب بقصر الخليفة ، ووقف عمارة بين يديه فأنشده إحدى مدائحه فيه وفى الخليفة. وأفيضت عليه الخلع ، وناوله طلائع خمسمائة دينار ، وأرسلت إليه سيدة القصر بنت الخليفة السابق (الحافظ) خمسمائة دينار أخرى ، وتهادته أمراء الدولة .

ويتحول الكتاب من هذا الموضع إلى مذكرات سياسية قيمة ، فيصور لنا أحوال مصر ومجالسها الأدبية ولا يلبث أن يعود إلى مكة ، فمسقط رأسه ، فزبيد ، ثم يحج فى سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦م فيرسل به صاحب مكة إلى مصر فى سفارة ثانية ، ويحتفل به المصريون وعلى رأسهم طلائع وتغدق عليه الجوائز والعطايا إغداقاً.

ويستقر عمارة بمصر ، ويُقتَلُ وزيرها طلائع ، وتكون المنافسة الحادة بين ضرغام وشاور ، ويستنجد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بنور الدين صاحب الشام ، فيرسل إليه بأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الأمور ويصبح أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة ، ويعاجله الموت ، فيتولى الوزارة من بعده صلاح الدين ، ويقضى على الخلافة الفاطمية قضاء مبرماً . ويعود بمصر إلى الخلافة العباسية وعمارة يتحدث عن نفسه وعن علاقته بهؤلاء الوزراء جميعاً وبأسد الدين شيركوه وصلاح الدين . ويلم بكثير من الحوادث ، مضمناً كتابه ما نظمه من قصائد فى هذا الوزير أوذاك أو فى هذا الأمير أو ذاك .

وكان عمارة قد تحول شيعيًّا . فلما أزيلت الدولة الفاطمية نعاها فى غير قصيدة . وعرف فيه صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل هذه العصبية ،

فطاولاه ، حتى اشترك فى مؤامرة يريد بها قلب نظام الحكم والرجوع بمصر إلى الدعوة الفاطمية ، واكتُشفت المؤامرة ، فصُلب فى جماعة من أصحابه ولم تفـده مدائحه الكاذبة فى صلاح الدين ورفقائه .

٢

أسامة بن منقذ

أحد أبطال المسلمين فى الحروب الصليبية ببلاده فى الشام. وقد زار مصر وشارك فى أحداثها السياسية ، ثم زار الموصل ، وتولى أعمالا كثيرة لأمراء مختلفين كان آخرهم صلاح الدين الأيوبى . وامتدت حياته حقباً متطاولة من سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م إلى سـنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . وهو كالنحلة لا يقرّ ولا يسكن . يشترك فى حرب الصليبيين ويخوض معهم معارك حامية . وحين تضع الحرب أوزارها يكون له منهم الصديق . ويعاشرهم . ويرقب حياتهم ؛ ويسجل ملاحظات مختلفة عن معاشهم ونظمهم ومعارفهم .

كان آباؤه أمراء شَيْزَر ؛ وهى حصن حصين ، أقامته الطبيعة على ضفاف العاصى بالقرب من حماة فى أعالى الشام ؛ وكم تكسرت تحت عينه على هذا الحصن رماحُ الروم والصليبيين والإسماعيلية الحشاشين وبعض العرب من بنى كلاب فى حلب . وكان عمه أمير الحصن . تنازل عنه أبوه . وكان أكبر منه سناً ؛ ولم يكن له ولد فى أول الأمر . فاشترك مع أبيه فى تربيته والعناية به ، حتى يكون خلفاً صالحاً له ؛ وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم علوم العربية وقرأ فى آدابها . وقد اهتما بتربيته الحربية وتمرينه على صيد الحيوان الأليف والوحشى حتى يحسن صَيْد الصليبيين وغيرهم من خصومه الآدميين . وتصادف أن رُزق عمه ولداً وأحسّ أسامة منه الغيرة والوحشة . فترك مسقط رأسه حول

سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م وتقلب فى البلاد يخاطر ويغامر ، لا يستقر به ميدان ولا بلدة من البلدان .

أسامة إذن شخصية فذة من شخصيات الحروب الصليبية ، وكان شاعراً أديباً ، كما كان فارساً رهيباً ، فلقى الاحترام والتبجيل من المسلمين والصليبيين على السواء ، وقد حاول بأخرة من أيامه أن يكتب حياته وما لقى فيها من عبر الحوادث ، فكتب كتابه « الاعتبار » وهو مذكرات بديعة ؛ تصور لنا الفروسية العربية زمن الصليبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره وحياة الصليبيين أنفسهم ، وهو تصوير أمين دقيق .

وإذا كان هناك شيء يؤخذ على هذه المذكرات فهو أنها لم تكتب بشكل منطقى منسق على الزمن وتطوره وامتداده ، وإنما كتبت فى شكل أخبار من هنا وهناك . ومع ذلك فإنها تلم بحياته منذ صباه وحياة أبيه وعمه وكل ما كان ببيئته فى نشأته ، كما تلم برحلاته ، وتنقلاته وحروبه . وهى ترجمة كاملة له . ولكنها لم ترتب ترتيباً دقيقاً . وهو يستهل الكتاب بمعركة شهدها بين المسلمين والصليبيين وهى معركة قنسرين ثم يحدثنا عن محاولة الروم والفرنج حصار شيزر ، وينتقل سريعاً إلى إقامته فى دمشق بعد فراقه لعمه ، وقد أقام فيها ثمانى سنوات وشهد عدة حروب ، ثم فارقها إلى مصر ، فأقام بها عشر سنوات ، وكانت حينئذ مسرحاً للفتن والمكايد والمفاسد ، وقد استقبله الخليفة الحافظ استقبالا حسناً ، وأكرم وفادته يقول :

« كان وصولى إلى مصر يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ فأبرنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى ، فخلع علىّ بين يديه ، ودفع لى تخت ثياب ومائة دينار وخولنى دخول الحمام ، وأنزلنى فى دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش (بدر الجمالى) فى غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس . . وأقمت بها مدة إقامتى فى إكرام واحترام وإنعام متواصل » .

ولم يلبث الحافظ أن توفى وخلفه ابنه الظاهر ، فوالى أسامة ببره وإنعامه .

ويحدثنا أسامة عن اختلال الأمور بمصر لا بين الجنود فحسب . بل أيضاً بين الوزراء ؛ كما يحدثنا عن كثرة الخصومات والمؤامرات التى كانت تدبَّر فى هذا البلاط مما لم يجد له مثيلا فى العالم الإسلامى . وبينما كان الظاهر غارقاً فى ملذاته كان وزيره الكردى العادل بن السلار غارقاً فى دسائسه ومظالمه . وقد اغتاله حفيد زوجته نصر بن العباس، وتولى الوزارة بعده أبوه ؛ وحاول الابن أن يقتله هو الآخر بتحريض الخليفة ، ولم يلبث أن قتل الخليفة نفسه سراً . وأقام العباس الفائز مكانه واتهم فيه إخوته . وتقوم مؤامرات مسلحة ، ويفر عباس . ويفر معه أسامة إلى الشام . ويقتل عباس فى الطريق ، يقتله الصليبيون . ويجرح أسامة ، ويصل بعد أهوال إلى دمشق ، ويخدم نور الدين .

وهذه القطعة من مذكرات أسامة وثيقة مهمة فى تاريخ هذه الحقبة بمصر وما كان يجللها من سواد ؛ ونراه يتلوها بقطعة أخرى عن معاركه تحت لواء نور الدين مع الفرنج وخصومه من أمراء الشام . والكتاب من هذه الناحية خطير ، لأنه يصور انحلال الدول والإمارات الإسلامية فى الشرق ، بينما ينزل الصليبيون بالشام ويكوّنون لهم إمارات فيه . ومصر من الجنوب مشغولة بفتنها ودسائس حكّامها ومؤامراتهم ، وإماراتُ الشام والموصل فى حروب مستمرة لا مع الصليبيين فحسب ، بل مع أبناء العمومة والإخوة فى الدين ؛ وأبواق «الإسبتاريّة» وغيرهم من فرق الصليبيين مثل الداّويّة ترن فى أسماعهم . ولولا أن هبّ نور الدين يحمى حمى الشام لوقعت البلاد الإسلامية فى الشرق كسيرة فى أيديهم . ومدّ بصره ، فأرسل أسد الدين شيركوه إلى مصر واستطاع صلاح الدين أن يستخلصها من الفاطميين ومما كانت ترزح فيه من فساد فى الحكم وانحلال . ولم يلبث أن هزم الصليبيين واستردّ منهم أكبر القلاع والحصون . وأزال إمارتهم فى بيت المقدس . واسترده للعرب والإسلام .

ويفيض أسامة فى وصف المعارك مع الصليبيين . ويعود بنا إلى أيام شبابه . ويصبح الحديث ذا شجون . تارة يتحدث عن بعض الحروب فى شيزر وغيرها

من ثغور الشام وما أبلى فيها هو وأبوه وأهله ، وتارة يتحدث عن بطولة النساء وما كُنّ يظهرن من ضروب البسالة والشجاعة، وتحدث فى أثناء ذلك عن تعلقه بالصيد، وقد أفرد له فصلا خاصًّا فى أواخر كتابه، وقفنا فيه على أدواته لعصره، ومن طريف ملاحظاته أن السباع يكون منها الشجاع والجبان وأن الُحبارى إذا رأت الصقر استقبلته بذنبها ، فإذا دنا منها سلحت عليه ، فبلت ريشه وملأت عينيه وطارت ، ويقول إن النمر يستطيع أن يقفز إلى نحو أربعين ذراعاً .

ومن أطرف ما كتبه فى مذكراته حديثه عن الفرنج وعاداتهم ، وقد كانوا حين يكفّون عن الحرب تقوم بينهم وبين العرب علاقات فيها شيء من حسن الجوار . وصورهم أسامة بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » وكانت الحضارة الإسلامية فعلا فى هذا التاريخ تتفوق تفوقاً ظاهراً على حضارة الأوربيين، ومن ثم لا يبالغ أسامة حين يقول عنهم إن «مَنْ هو قريب العهد منهم بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا "سكنوا البلاد" وعاشروا المسلمين» فقد كانوا فى أثناء مقامهم يكتسبون غير قليل من المدنية الإسلامية والذوق العربى ، فتلين طباعهم وتتهذب أخلاقهم .

ووقف أسامة عند طرقهم ونظمهم القضائية، فقال إنهم كانوا يعتمدون فى محاكماتهم على المبارزة والرمى فى الماء ، ويقول إنه لا عقل لهم ولا معرفة ، ومع ذلك يحدثنا عن انعقاد المودة بينه وبين بعض فرسانهم حتى كان يناديه بأخى ، وكانت الجنود الداويّة تحترمه ، فكان إذا زار بيت المقدس يخلون له جانباً يصلى فيه . ويلاحظ أنه لا توجد عندهم غيرة على نسائهم ، يقول : « يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته فيلقاه رجل آخر فيأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى » . وبعد أن يقص أسامة طائفة من أخبارهم التى تدل دلالة واضحة على نضوب الغيرة على نسائهم - يعود فيقول : « انظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ، ما فيهم غَيْرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة : وما تكون الشجاعة إلا من النخوة

والأنفة من سوء الأحدوثة » .

وأتى أسامة بنوادر تدل على تأخرهم فى الطب وأنهم كانوا حقًا متخلفين عن العرب تخلفاً ظاهراً فى هذه الدورة من حياتهم . ومعروف أن المدنية الأوربية التى تروعنا الآن إنما تبدأ مع العصر الحديث ، أما فى العصور الوسطى فكانت أوربا فيها متخلفة ، وكانت تروعهم الحضارة الإسلامية ، ويقعدون منها مقعد التلامذة من أساتذتهم فى الأندلس بقرطبة وطليطلة وغيرهما من الحواضر هناك . وفى الشام ببيت المقدس وأنطاكية وغيرهما من البلدان الشامية ، وأيضاً فى صقلية وغيرها من البلاد التى كان يرفرف عليها علم الإسلام والعروبة . ولعل من أكبر الدلالة على ذلك هذه النادرة التى يقصها أسامة عن أطبائهم ، يقول :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة "فى أعالى الشام" كتب إلى عمى "أمير شيزر" يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ، قال : أحضروا عندى فارساً قد طلعت فى رجله دُمّلة وامرأة قد لحقها نشاف "لعله جفاف لبنها فى الرضاعة" فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجى ، فقال لهم : هذا ما يعرف شىء "فكيف" يداويهم ، وقال للفارس : أيما أحبّ إليك : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة فقال : أحضروا لى فارساً قوياً وفأساً قاطعاً ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر . فحط ساقه على قرمة "قطعة كبيرة" خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ، فما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة . فقال : هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم : الثوم والخردل . فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى ، وشق رأسها صليباً ، وسلخ وسطه ، حتى ظهر

عظم الرأس ، فحكه بالملح ، فماتت فى وقتها . فقلت لهم : أبقى لكم إلىّ حاجة ؟ قالوا لا . فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه ! » ولا يمضى أسامة بل يقف ليقص لنا مقدرة طبيب من أطبائهم ، فقد رمح حصان خازناً لبعض ملوكهم يسمى برنار ، يقول : « فعملت عليه رجله وفتحت فى أربعة عشر موضعاً ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب إفرنجى فأزال عنها المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرىء وقام مثل الشيطان» . ولعل فى رواية هذه القصة بجانب النادرة الأولى ما يدل على صدق أسامة فيما يرويه وأنه كان أميناً فيما يذكره من أخبار القوم . على أنه لا يلبث أن يروى لنا هذه النادرة عن صليبى منهم هو صاحب طبرية : فقد حدثه بقوله :

« كان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت : فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا ، فقلنا أتجىء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً ؟ قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حطّ يده عليه عوفى ، فلما رآه قال : أعطونى شمعاً . فأحضرنا له قليل شمع ، فليّنه وعمله مثل عقد الإصبع ، وجعل كل واحدة فى جانب أنفه . فمات الفارس : فقلنا له : قد مات : قال : نعم : كان يتعذب : فسددت أنفه : حتى يموت ويستريح » .

وفى هذا كله ما يؤكد تأخر القوم بالقياس إلى معاصريهم من المسلمين والعرب ، ولعل ذلك ما كان يدفعهم دفعاً إلى هجر عاداتهم إلى العادات الشرقية ، حتى فى الثياب والطعام : فقد روى أسامة عن بعضهم أنه كان لا يأكل الخنزير وكان يتخذ الطباخات الشرقيات ولا يأكل إلا من طعامهن . ومعنى ذلك أنهم كانوا يتعلقون بالحياة الشرقية فى المطعم والملبس ، كما كانوا يتعلقون بها فى المسكن . فإذا كانوا قد غزوا بلادنا وفتحوا حيناً بعضها وأقاموا فيها فقد غزتهم هذه البلاد بمدنيتها وحضارتها . وكانوا لا يزالون جفاة خشنين وغلاظاً فظّين . ومن طريف مايقصه أسامة سباق أقاموه فى طبرية بين عجوزين ، يقول :

« حضرت بطبرية فى عيد من أعيادهم وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما فى رأس الميدان ، وتركوا فى رأسه الآخر خنزيراً سمَّطوه وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يشدون منها . والعجوزان تقومان وتقعان على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهما ، فأخذت ذلك الخنزير فى سبقها » .

ويفرغ أسامة من حديثه عن الصليبيين ، ويأخذ فى سرد طائفة من تجاربه واختباراته فى شبابه مع التعرض لبعض الأحداث ، ثم يقفز إلى هرمه وشيخوخته ، ويوصى بأن ركوب الأخطار لا ينقص الأعمار . ويقول إن السنين أقعدته عن خدمة السلاطين ، ومع ذلك كان يرعاه صلاح الدين ، ويسهب فى مديحه وكيف جمع كلمة الإيمان ، وقمع عَبَدَةَ الصلبان ، ورفع علم العدل والإحسان ، ويقول إنه من إنعامه كل يوم فى مزيد .

وبعامل الشيخوخة نجد أسامة يفرد فصلا فى كتابه لأخبار الصالحين ؛ ويسرد بعض ما قرأه أو سمعه من قصص عن السابقين وبعض المعاصرين . ويعرض لبعض أدوية تشفى من الأمراض . ثم يفرد للصيد فصلا طويلا يتحدث عن آلاته وما شاهده فى المصايد المختلفة ببلاده وفى مصر ، وهو فصل طريف إلى أبعد غاية . والحق أن الكتاب طرفة بديعة لما يحوى من مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره ، وهى مذكرات نفيسة ويزيد فى نفاستها أن أكثر ما دُوِّنَ بها مما خبره بنفسه ، وشاهده بعينه .

٣

ابن خلدون

ونمضي بعد أسامة . ويدور بنا الزمن دورات ، حتى نلتقي بابن خلدون ، أكبر مؤرخي العصور الوسطى الأخيرة عند العرب ، فنجده يسجل حياته وأحداثها السياسية في تأليفه الذي سماه « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » إذ تولى وظائف مختلفة في بلاد المغرب وخدم غير سلطان من سلاطينها ، ثم رحل إلى غرناطة في الأندلس فخدم سلطانها محمداً الخامس لمدة سنتين ، وأرسله في سفارة إلى بدرو في إشبيلية لغرض التعديل في شروط الصلح المعقودة بينهما . ثم ترك الأندلس إلى المغرب وشغل فيه وظائف مختلفة ، ولم يلبث أن اعتزل الوظيفة ، وأقام في قلعة ابن سلامة شرقي تلمسان في شمالي الجزائر ، ليكتب تاريخه المشهور . وفي عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م قصد إلى الحج ، ولكنه لم يتجه مباشرة إلى غايته ، فقد أقام في القاهرة ولزم التدريس في جامعها « الأزهر » ، وعينه السلطان برقوق قاضياً لقضاة المالكية ، وقد ولي هذا المنصب ست مرات ، إذ كان يُعْزَلُ ، ثم يعود . وفي سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م رافق السلطان الناصر إلى دمشق في حملته على تيمورلنك ، والتقى بهذا الطاغية . وعاد إلى القاهرة ، فظل بها ، حتى توفي سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

فنحن إذن بإزاء شخصية سياسية كبيرة ، ومن هنا يكون لما يكتبه أهمية خطيرة في بيان الشئون السياسية لدول المغرب ودول المشرق ، فقد تقلد المناصب الكبيرة هنا وهناك ، ورأى تحت عينه كل ما كان في هذه الدول من عوامل قوة أو انحلال وضعف . وأعانه ذلك على كتابة مؤلفه العظيم في التاريخ وقد قدَّم له بمقدمته المشهورة ، وهي من أروع ما كتبه العرب في السياسة والاجتماع . ولد

بتونس سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م لأسرة من الأسر المشهورة التى نزحت عن الأندلس فى عصر الموحدين ، وهى أسرة عربية الأصل ، فقد هاجر جدها الأعلى من اليمن إلى إشبيلية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وفيها ازدهرت أسرته ، ونزح منها أحد فروعها إلى المغرب ، ومن هذا الفرع ابن خلدون ، وكان آباؤه على غراره يشتغلون بالسياسة والأدب .

ويستهل ابن خلدون مذكراته ببيان نسبه وأنه يرتفع إلى خالد أو خلدون الجد الأعلى الذى نزح إلى الأندلس ، ويذكر بينهما عشرة آباء ، ويقول إنه من حضرموت . من عرب اليمن ، ويتحدث عن أسلافه بالأندلس وشأنهم فى الأحداث المختلفة . ثم ينتقل بنا إلى أسلافه فى إفريقية وما تولوا من أعمال فى الدولة الحفصية . وقد استقر أبوه فى تونس زاهداً فى هذه الأعمال الإدارية ، ومنصرفاً إلى التدريس وأعمال البر .

ويفيض ابن خلدون فى بيان نشأته وشيوخه الذين تلقى عنهم ضروب الثقافة المختلفة بتونس من حديث وقراءات ونحو وفقه وأدب وعلوم عقلية : ويسمى لنا أكثر ما قرأه عليهم من كتب المعقول والمنقول : ويذكر لنا أن السلطان أبا الحسن المرينى قدم إلى تونس عام ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م ومعه جلة من العلماء، فأخذ عنهم وأفاد منهم كثيراً . ثم يسترسل فى الحديث عن هؤلاء العلماء استرسالا يكشف لنا به الحركة العلمية لعصره فى إفريقية كشفاً دقيقاً .

ولم يكن مثل أبيه زاهداً فى الدنيا ووظائف الدولة . وأعانته صلته بالعلماء والرجال البارزين فى البلاط المرينى على أن يشغل فيما بعد مناصب مختلفة . وقد عيّن وهو فى سن العشرين كاتباً لسلطان تونس واختصه بكتابة العلامة ، وهى وضع « الحمد لله والشكر لله » بالقلم الغليظ مما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم : وكان يتولاها خيار الكاتبين للسلطان .

ونشبت فتن وثورات فى العاصمة ، فتركها إلى ابن مزنى صاحب الزاب ، واستولى أبو عنان المرينى على تلمسان والبلدان الممتدة شرقاً إلى بجاية : فالتحق

بخدمته واشترك فى حملاته الحربية ، وأعجب به ، فعينه فى كتابته والتوقيع بين يديه سنة ٧٥٦ هـ وواصل دراسته على علماء عصره . ولم تجر الأمور على هواه فقد غضب عليه السلطان بعد عام واحد لما حصل بينه وبين صاحب بجاية من مداخلة هوّلها بعض حساده وقالوا إنه يريد أن يساعده لاسترجاع بلده ، فزج به فى السجن مرتين ، وظل به إلى وفاة السلطان عام ٧٥٩ إذعفا عنه السلطان الجديد ، واستخدمه كاتباً بين يديه ، ثم عينه قاضياً للقضاة . وأحس بدسائس جديدة تدبّر له ، فاستأذن فى الرحيل إلى غرناطة ، حيث بنو الأحمر وأميرهم محمد الخامس ووزيرهم ابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس المشهور . وكان قد راسله ورحّب بمقدمه . وقدم ابن خلدون سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م وظل سنتين فى هذا البلاط وأحس بفتور المودة بينه وبين ابن الخطيب فعوّل على الرجوع إلى بلاده . ونزل بجاية واتخذه أميرها حاجباً له ، وتولى فيها منصبى الخطابة والتدريس . ولما استولى عليها أمير قسطنطينة فى العام التالى رحل إلى بسكرة وراسل أمير تلمسان ووفد عليه ، فأكرمه ، وسرعان ما قلب الدهر ظهر مجنّه لهذا الأمير ، فاستولى على بلاده السلطان عبد العزيز المرينى ، والتحق ابن خلدون بخدمته . ويظل عنده حتى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م فيرحل إلى الأندلس ثانية . ويجد وحشة من صاحب غرناطة ، ويجد ابن الخطيب مسجوناً . ويقتل . ويولى وجهه إلى إفريقية فيجد أمير تلمسان أبا حمو قد استرد بلده من السلطان المرينى ، فيقيم عنده قليلا ، ويصمم على اعتزال السياسة ويعكف فى قلعة ابن سلامة على كتابة تاريخه . ثم يتحول إلى تونس ومنها إلى القاهرة .

ولعل فى هذا الخط السريع ما يدل على أهمية هذا الكتاب الذى ألفه ابن خلدن فى بيان حياته ووظائفه فى الدول المغربية ، فقد أمدنا بتفاصيل كثيرة عن الحياة السياسية فى هذه الدول ، وكانت تمزقها الفتن والثورات والحروب . وكان دائماً لا يجد بأساً من التحول إلى الغالب . فهو يشتغل اليوم مع هذا الأمير وغداً مع عدوه . ومما لا شك فيه أنه لعب دوراً خطيراً فى الشئون السياسية المغربية ؛

وأتاح له ذلك أن يطلع على أحوال الدول والأمم وأن يؤلف مقدمته الفلسفية لتاريخه، التي تمتاز بالحكم الصائب والنظر الدقيق الفاحص .

ويرحل ابن خلدون إلى الشرق ليؤدى فريضة الحج . ولكنه لا يواصل رحلته، فقد مرّ بالقاهرة ، وأعجبه النشاط العلمى والأدبى فيها ، وكانت حينئذ كعبة العالم العربى ومفزع آماله . يهبط إليها العلماء والأدباء من آسيا فراراً من حملات التتار والصليبيين ومن إسبانيا فراراً من حملات المسيحيين فى الشمال، وقد وصفها على هذا النحو .

« انتقلت إلى القاهرة . فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى جوه . وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه . وتضىء البدور والكواكب من علمائه. قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء ، يسقيهم العَلَل والنَّهَل سَيْحُه . ويجنى إليهم الثمرات والخيرات ثَجّه . ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة . وأسواقها تزخر بالنعم » .

واشتغل ابن خلدون أول الأمر بالتدريس . واتصل بالسلطان برقوق فأبرّ لقاءه وآنس غربته وأجزل له فى الجرايات والعطاء، وعينه فى سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٤م قاضياً لقضاة المالكية . والتمس منه أن يتوسط عند أبى العباس الحفصى فى إرسال أهله وولده إليه . لكنهم غرقوا فى الطريق، فزهد فى الدنيا وخرج إلى الحج عام ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م . وعاد فولى القضاء ثانية ؛ وكان يتركه . ثم يستعيده ، كما كان يتولى الدروس والخوانق . وأصبح قريباً من السلطان برقوق ؛ فكان يستشيره فى كثير من شئونه . ولما تولى بعده السلطان الناصر قربه منه ؛ وصحبه معه فى جملة قضاته حين توجه بحملته المشهورة إلى دمشق للقاء تيمورلنك ودفع جيوشه من التتار إلى الوراء .

ونمى هناك إلى السلطان الناصر أن بعض الأمراء المنغمسين فى الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها . فرجع وراءهم خشية من انتقاض الناس ؛ وخلّف

الكثير من أمرائه وقضاته ، وكان ابن خلدون فى المخلّفين. وسمع أن السلطان تيمورلنك يسأل عنه ، فلم يسعه إلا لقاءه . وأكرم وفادته عليه ، وأعطاه الأمان لأهل دمشق ،وأقام عنده خمسة وثلاثين يوماً يباكره ويراوحه ،وعزم عليه تيمورلنك أن يبقى معه فى معسكره ، ويعيش بقية حياته فى رعايته . وهنا يستعمل ابن خلدون الحيلة ، فقد تحدث إليه حديثاً عذباً كله إطراء وثناء وأنه لا يؤثر على البقاء عنده شيئاً فى الدنيا . فأعجب به ، وأمر أن يظل فى خدمته ، وصدع ابن خلدون لأمره مظهراً الرضا والفرح بذلك غير أنه استأذن فى الرجوع إلى القاهرة ليعود بكتبه وأهله ، فأذن له ، فضى وهو لا يكاد يصدق بالنجاة من هذه الورطة . ويعود إلى منصبه فى القضاء حتى يوافيه أجله سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

وعلى هذا النحو أتيح لابن خلدون أن يرى أكثر العالم الإسلامى العربى لعصره ، وأن يشارك فى شئونه السياسية شرقاً وغرباً . وليس هذا الكتاب الذى ضمنه التعريف به وبرحلاته إلا مذكرات سياسية خطيرة تقفنا على أحوال البلدان التى ألم بها وكل ما كان يجرى بها من شئون سياسية واجتماعية . وستظل هذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التى دُوِّنت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام لعصره . وبها نختم التراجم السياسية ، إذ لم يؤلف بعدها ترجمة لها قيمتها وخطرها فى وصف العالم العربى وأحواله .

الفصل الخامس

تراجم حديثة

١

تراجم مختلفة

نهج المحدثون نهج قدمائنا فى الترجمة لأنفسهم ، وقد اطلع من أتقن منهم اللغات الأجنبية على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية . فكان القديم العربى والجديد الغربى باعثاً لهم على الترجمة لأنفسهم ، ولعل أهم من ترجموا لأنفسهم فى القرن الماضى على مبارك ، فقد كتب فى مؤلفه « الخطط التوفيقية » سيرة حياته ، واستخرجها منه الدكتور محمد درى الحكيم ونشرها مفردة . وهى سيرة طويلة تقع فى نحو ستين صحيفة ، ألم فيها إلماماً دقيقاً بنشأته وتعلمه فى مصر وفرنسا ، كما ألم بوظائفه وتقلباته فى الحكومة وخارجها ، وما قام به من أعمال وإصلاحات فى التعليم وغيره . وقد كتبها سنة ١٨٨٩ للميلاد أى قبيل وفاته بقليل : فهى سيرة كاملة .

ويعرفنا فى أولها بقريته « برنبال الجديدة » التى تقع فى الشمال الشرقى للدلتا على البحر الصغير بالقرب من المنصورة، وكان بها أربع حارات ومسجد وكُتّاب ومعملان لتفريخ الدجاج وأربعة أنوال يدوية للنسيج ودكان لعطار وآخر لصباغ ، وضريحان لوليّين وبعض صُنّاع كنجار للسواقى ونوتى للمراكب . وفى هذه القرية ولد على مبارك سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م للشيخ مبارك خطيب المسجد وإمامه ومأذون البلدة الذى يعقد عقود الزواج بها ، ويفتى الناس فى شئونهم الدينية .

ولما صَلُبَ عوده بعض الصلابة أرسله أبوه إلى كتَّاب القرية ، وكان المقرئ فيه شيخاً ضريراً قاسياً يضرب الصغار ويعنف بهم : مما كرَّه «على مبارك» فى التعلم وحفظ القرآن . وحدث أن رُميت على أبيه وأسرته أرض ، عجزوا عن دفع ضرائبها للحاكم : فبيعت بهائمهم ، وسيموا العذاب على نحو ما هو مشهور عن الأسرة العلوية وحكمها لمصر فى القرن الماضى . وتشتتت أسرة على مبارك فى البلاد ، ونزل أبوه بعربٍ فى الشرقية يسمون « السماعنة » فاتخذوه شيخاً لهم وكفوه مئونته . ولما استقرت به النَّوى أرسل ابنه إلى كُتَّاب يعلم فيه شيخ يسمى أبا الخضر ، ولم تمض مدة طويلة بعلىٍّ حتى نفر من هذا الكُتَّاب كما نفر من كتاب بلدته السابق ، فماذا يصنع أبوه ؟ لقد رأى أن يلحقه بكاتب ممن يكتبون للناس فى شئونهم اليومية ، ولم يعجب ذلك عليًّا ، فطوَّف فى البلاد القريبة ، ولقى كثيراً من صنوف المشقة ، وما زال على ذلك حتى اشتغل كاتباً صغيراً بين يدى « عنبر أفندى» مأمور زراعة القطن بأبى كبير . وعجب على حين رآه أسود حبشيًّا ، وعرف عنه أنه تعلم بمدرسة « قصر العينى » فطمحت نفسه أن يلتحق بها ، وأن يصبح مثله من الحكّام . وعرف فيما عرف أن هناك مفتشاً للحكومة يمر بمكاتب القرى ، يختار منها الطلاب النابهين ، فيلحقهم بالمدرسة المذكورة . فترك عمله ، والتحق بكُتَّاب ، ومر المفتش بهذا الكتاب ، فأعجب به ، واختاره فيمن يختارهم للمدرسة ، وكانت سنه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . ودخل المدرسة : فلم ترقه ، إذ لم تكن بها عناية بمأكل ولا ملبس ، وكانت بها روح عسكرية شديدة : وكاد أن يرجع لولا أن أنعم الله عليه : فنقل إلى مدرسة الهندسة بأبى زعبل سنة ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م . يقول :

« وكان أثقل الفنون علىَّ وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو ، فكنت أراها كالطلاسم . وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السَّحَرة . وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم إبراهيم بك رأفت متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبى زعبل ، وجعلهم فرقة مستقلة ، فكنت أنا منهم ، بل

آخرهم . وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة . ففى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة . . فانفتح من حسن بيانه قُفْلُ قلبي ووعيت ما يقول ؛ وكانت طريقته هى باب الفتوح علىّ . ولم أقم من أول درس إلا على فائدة : وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين . فلم تكن لهم هذه الطريقة : وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع من الفهم ؛ فختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى . . وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين ، وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة . وفى تلك السنة ، وهى سنة ١٢٥٥هـ فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق ؛ فاختارونى فيمن اختاروه ، فأقمت بها خمس سنين ، وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائماً أول فرقتى » .

وفى سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م أرسل بِعَثْ علمى إلى فرنسا ، فكان بين مبعوثيه ، وأقام بها خمس سنوات تعلم فيها الفرنسية وأتقنها كما تعلم الهندسة الحربية والمدنية ، وعاد فى عهد عباس الأول ، وكانت مصر تجتاز دوراً من أدوار محنتها فقد أغلق المدارس ، وخفض ميزانية التعليم إلى خمسة آلاف جنيه فى العام ، والتحق على مبارك بمدرسة فى « طرة » ولم يكن فيها إلا جماعة قليلة متقدمة فى السن . وفى تلك المدة تزوج بكريمة أحد معلميه فى مدرسة أبى زعبل ، ثم حدثته نفسه بزيارة أهله وكانوا قد عادوا إلى « برنبال » . يقول واصفاً للمفاجأة والزيارة :

« فوجدت أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى ، ولم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض إخوتى ، وكان دخولى عليهم ليلا ، فطرقت الباب ؛ فقيل من أنت ؟ فقلت ابنكم على مبارك . وكانت مدة مفارقتى لأمى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ولا سمعت صوتى ، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتحدّ النظر وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية لابساً سيفاً وكسوة تشريف . وكررت السؤال حتى علمت صدقى ، ففتحت الباب وعانقتنى ووقعت مغشياً عليها ثم أفاقت ، وجعلت تبكي وتضحك وتزغرد ، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران ،

وامتلأ المنزل ناساً ، وبقينا كذلك إلى الصباح ، والناس بين ذاهب وآيب . ثم رأيت والدتى فى حيرة فيما تصنعه لى من الإكرام ، وتريد عمل وليمة وهى فارغة اليد ، ورأيتها تبكى ، ففهمت حقيقة الحال ، فناولتها عشرة « بنتو » كانت بجيبى ، ففرحت وأولمت ، وأقمت عندهم يومين ، ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعود » .

وألمت بعلى مبارك أيام بؤس ونعيم ، وكان ذلك حال الموظفين المتصلين بالأسرة العلوية ، وخاصة كبارهم ، فيوماً يرضون عنهم ويوماً يغضبون . ولما تولى سعيد غضب عليه وألحقه بالفرقة الحربية التى سافرت لتؤازر الدولة العثمانية فى حروبها مع الروس . وفى هذه الرحلة تعلم التركية وعاد إلى مصر ، فكان يوظف حيناً ويطرد فيشتغل بالتجارة أو الهندسة الحرة حيناً آخر . وذهب عهد سعيد وجاء عهد إسماعيل فقام فيه بإصلاحات هندسية كثيرة ، وأسند إليه ديوان التعليم ، فنهض به خير نهوض ، وهو أكبر مصلح للتعليم عرفته مصر فى القرن الماضى ، ولم يعن فقط بالتعليم العالى ، بل عنى به فى جميع مراحله ، يقول :

« وكانت كثرة أشغالى لا تشغلنى عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين . فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشياً عند غدوى من البيت ورواحى . وأعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية . وكانت المكاتب الأهلية فى المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط فى عامة المكاتب المذكورة . فاستحسنت إجراءها على نسق المدارس المنتظمة ، فحررت لائحة بتنظيمها . . ورتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه ؛ وأنشأت مدارس مركزية فى بعض مدن القطر كأسيوط والمنيا وبنى سويف وبنها ، وانتخب لكل منها المعلمون والضباط ، وعين لها سائر الخدمة . ورتبت بها أدوات التعليم . ورغب الناس فى تعليم أولادهم بها وكثرت فيها الأطفال . وأنشأت فى القاهرة والإسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب مثل مكتبى "القربية" أحدهما للبنات والآخر للأطفال الذكور ومكتب الجمالية

ومكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفيّة . . »

وبذلك تحول التعلم فى مصر من دوائره الحربية الخاصة التى أرادها محمد على إلى دوائر الثقافة الشعبية . وهى صفحة بيضاء ومأثرة جليلة لعلى مبارك ، إذ نقل التعليم نقلة واسعة ، ولم يقصره على الذكور كما كان من قبل ، فكان ذلك نواة نهضتنا العلمية . وقد فكر فى تعليم اللغة العربية ، وكان تعليمها عقيما على الطريقة الأزهرية ، ولقى هو نفسه فى هذه الطريقة غير قليل من العنت ، كما حدثنا آنفاً ، إذ كان يرى النحو كأنه طلاسم ، ولم يفتح عليه فيه ، من أجل ذلك كله أنشأ مدرسة « دار العلوم » لتنهض بالدراسة الأدبية واللغوية على نمط جديد . وألحق بالمدارس مطبعة لطبع ما يلزم من الكتب لها ، وأنشأ مجلة سميت « روضة المدارس المصرية » وأقام قاعة للمحاضرات العامة ، وكانت المحاضرات تلقى فيها يوميّاً ما عدا أيام الجمع ، وإليه يرجع فضل إنشاء دار الكتب المصرية فقد جمع الكتب المتفرقة بالمساجد فى مكان واحد ، وضم إليها كثيراً من الكتب الأجنبية ، ونظم الاطلاع فيها والاستعارة منها . وبجانب ذلك كان يؤلف ويشجع على التأليف ، التلاميذ وغير التلاميذ .

والحق أن هذه الترجمة غنية بمعارف كثيرة ، وهى معارف نطّلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية فى القرن الماضى ، فقد تصادف أن كان على مبارك أهم من نهضوا بتلك الحياة حينئذ ، وسجل كل ما صنعه فيها ، بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعلم فى عهد إسماعيل . وكان يتولى أحياناً ديوان الأوقاف أو ديوان الأشغال أو نظارتهما ، فيدخل كثيراً من ضروب الإصلاح . ونراه يعرض للديون التى أثقل بها إسماعيل كاهل مصر كما يعرض لثورة عرابى . وقد عاد إلى الوزارة فى عصر الاحتلال ، ولكنه لا يعرض علينا شيئاً من أعماله ، فقد شلّ المحتلون يده ، حتى ليقول : « وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح بقدر الإمكان . . وآخذ فى تأدية ما فرض علىّ قياماً بحق وطنى » .

وإذا كان يؤخذ على هذه السيرة شىء فهو نكوص صاحبها عن الاشتراك فى

الثورة العرابية ، وهى ثورة وطنية كان من واجبه أن يخوض غمارها ، وليكن ما يكون ، ولكنه كان يؤثر الدعة ، فغادر القاهرة إلى «برنبال» مهتماً بإصلاح أراض له هناك وزراعتها ، ثم عاد فعمل مع المحتلين ، وكان خيراً له أن يعتزل العمل ويظل بعيداً عن السياسة وأوزارها فى ذلك الوقت التعس الذى كان يرزح فيه الوطن تحت كابوس الاحتلال . وقد توفى سنة ١٨٩٣ م .

ونمضى فى القرن العشرين فنجد كثيرين يترجمون لأنفسهم لا فى مصر وحدها . بل فى بلدان العالم العربى المختلفة ، ومن أشهر من كتبوا حياتهم «محمد كرد على» أديب سوريا وعالمها الذى توفى منذ سنوات قريبة ، فقد ترجم لنفسه فى نهاية الجزء السادس من كتابه « خطط الشام » . ونراه يقول إنه كردى الأصل ، نزح جده من السليمانية إلى دمشق فى التجارة . وفيها صادر بعض حكام الترك الظالمين أملاكه ، وعاش مجرداً من ثروته ، يقول :

« وخلّف والدى يتيما فقيراً ، فاشتغل لأول أمره فى صناعة الخياطة ثم فى التجارة ، فأثرى مرات ، وخسر مرات ، وابتاع فى آخر أمره مزرعة صغيرة فى الغوطة تمزّتها أنا وإخوتى منذ كنا صغاراً وإلى الآن . ولدت فى دمشق أواخر صفر سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م من أم شركسية ، ولما بلغت السادسة فى العمر أخذت بتلقى القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعيات فى مدرسة كافل سيباى الأميرية ، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى . ثم دخلت المكتب الرشدى العسكرى فدرست مبادئ التركية ، وكانت دروس الإفرنسية ناقصة ، فأتانى والدى بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين ، وبرعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية وبالعكس. ولما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية . . عينت مدة ست سنين موظفاً فى قلم الأمور الأجنبية ، فأخذت فى خلالها أتقن آداب التركية . . وقد اختلفت حولين كاملين إلى المدرسة اللعازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الفرنسية . . وقد اقتطعت مع ذلك

جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية . وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها » .

ويقول إنه كان أكبر من وجهه نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى وإشراب روحه محبة العرب وآثارهم وإقدامه على النشر والتأليف أستاذه الشيخ طاهر الجزائرى ، وقد انبعثت فيه رغبة شديدة إلى مطالعة كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأصول الشعوب ومدنياتهم ، فقرأ كثيراً من كتب الفرنسيين وعكف على قراءة مجلاتهم المختلفة. ولم يلبث أن أصبح صحفياً ، إذ حرر جريدة (الشام) الأسبوعية ثلاث سنين وراسل مجلة المقتطف بمصر ، وأخذ اسمه يلمع ويشتهر . وزار القاهرة سنة ١٩٠١ ودُعى إلى التحرير فى مجلة الرائد المصرى ، فلبى الدعوة ، واختلف إلى دروس الشيخ محمد عبده ومجالسه . ثم عاد إلى دمشق وكانت عين الحكام الترك عليه ، فكانوا يفتشون داره مراراً . ودعاه ذلك إلى الهجرة ثانية إلى مصر ليصدر فيها مجلته المقتبس واشترك معها فى تحرير جريدة الظاهر اليومية وجريدة المؤيد التى كان يحررها الشيخ على يوسف . وتعرف فى أثناء ذلك على كثير من رجالات مصر البارزين . حتى إذا حدث الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ شعر كما شعر غيره من العرب بأن الحكم التركى ستخف وطأة ظلمه ، وأن ساستهم سيعرفون ما للشعوب من حقوق . فرجع إلى دمشق وأصدر جريدة المقتبس يومية سياسية . ويعترف بأنه لم يكن يرى الانفصال عن الدولة العثمانية. إنما كان يريد الإصلاح ما استطاع ، ومع ذلك تولاه حكام الترك بالنقمة والسخط الشديد . فغادر الشام إلى فرنسا ، وتعرف فيها على بعض فلاسفتها وكُتّابها . وكتب فى وصف هذه السياحة طائفة من المقالات وجمعها باسم « غرائب الغرب » . ورجع إلى دمشق ، فلقى نفس السخط من حكام الترك ، فهاجر إلى مصر سنة ١٩١٢ ولقى كثيراً من المشقة فى طريقه إليها ، وسرعان ما عاد إلى مسقط رأسه . على أنه لم يلبث فى السنة التالية أن رحل إلى إيطاليا وفرنسا وأواسط أوربا باحثاً عن المخطوطات العربية النفيسة فى مكاتب الغرب ؛ وعاد ليجد اضطهاد العثمانيين له

قد تفاقم ، فقد أغلقوا صحيفته « المقتبس » ووضعوه تحت رقابة شديدة . ثم عادوا بعد إعلان الحرب الأولى فى هذا القرن ، فعفوا عنه ، ودفعوه إلى العمل معهم والدعاية لهم فى أثناء الحرب ، فصدع لمشيئتهم ، وأعاد صحيفة « المقتبس » وحرر لهم صحيفة أخرى تسمى « الشرق » . وبينما كان فى الآستانة أواخر هذه الحرب سقطت دمشق فى أيدي الحلفاء ، فعاد إليها وتولى رياسة ديوان المعارف ؛ وأنشأ المجمع العلمى العربى الذى لايزال قائماً إلى اليوم . وعُزل ثم أعاده الاحتلال الفرنسى إلى وظيفته سنة ١٩٢٠ ، وزار أوربا وطوف فى كثير من بلدانها ؛ ويقف هنا ليردعن نفسه ما أشيع عنه من مديح الانتداب الفرنسى ، وقدآثر أن يترك الوظيفة ، ويخلص لرياسة المجمع العلمى العربى وتأسيسه . ولكن لا نصل إلى سنة ١٩٢٨ حتى نراه يتولى وزارة المعارف ويمثل دولته فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى مدينة أكسفورد بإنكلترا ، ويقول إنه أنشأ كلية للآداب وأخرى للإلهيات ، فتمت للجامعة السورية أربع شعب : هاتان الشعبتان وشعبة للطب وأخرى للحقوق .

ومن طريف ما تتضمنه هذه الترجمة اعتراف صاحبها بمالأته للحكام من العثمانيين والفرنسيين ، وفى ذلك يقول عن صحيفته :

« كان مذهب المقتبس السياسى معاونة الحكومة بالمعقول وانتقادها عند الاقتضاء وتحبيذها إذا أتت ما تحبذ عليه . ينزع أبداً إلى إنارة الأفكار وتقوية روح القومية العربية ، وسياسته وطنية ليس فيها شىء من روح الكراهة للأجانب » .

وطبيعى أن يقول ذلك وهو قد اشتغل فعلاً فى الدعاية للعثمانيين فى أثناء الحرب الأولى ، ثم كان ممن آزروا الانتداب الفرنسى فى حكم سوريا الشقيقة . على أن هذه صراحة تحمد له ، ومن نمطها يقول :

« خُلقتُ عَصبيَّ المزاج دمويَّه ، مغرماً بالموسيقى العربية ، محبّاً للطرب والأنس والدعابة ، عاشقاً للطبيعة والسياحة . . وقد أولعت بالتجدد ، ومن عادتى أن

أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة . وأدور من الإصلاح التدريجي العلمي فى دائرة لا تتعدى الثورة فى الأفكار » .

وقد شكا كثيراً من الصحف التى كانت تتحامل عليه والصحفيين الذين كانوا يثلبونه ؛ وسمّى أهم مؤلفاته ، وهى : رسائل البلغاء ، وغرائب الغرب ، وغابر الأندلس وحاضرها ، وتاريخ الحضارة ؛ والقديم والحديث؛ ورواية المجرم البرىء ، وقصة الفضيلة والرذيلة . وآخر مؤلفاته :خطط الشام يقول « وهو كتاب فى مدنية الشام وتاريخه ؛ صرفت فى تأليفه ثلاثين عاماً ، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتى مجلد باللغات الثلاث: العربية والتركية والفرنسية ، وأنفقت فى سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه . ويدخل فى ستة مجلدات » . ويذكر طائفة من كتبه لم تطبع ، ويشير إلى مقالاته الكثيرة فى المجلات والصحف وخاصة مجلة المجمع العلمى العربى . وقد توفى سنة ١٩٥٤ م .

٢

طه حسين

فى قرية من قرى مغاغة بصعيد مصر ولد هذا الأديب الفذ سنة ١٨٨٩ للميلاد ، وفقد بصره فى سِنٍّ مبكرة ولكن القدر وهبه عوضاً عنه ذكاء حادًّا وذاكرة قوية . وكان سابع ثلاثة عشر ولداً لموظف صغير بشركة السكر هناك . ولم يكد يتقدم فى صباه حتى أرسله أبوه إلى كُتَّاب القرية ، فحفظ القرآن الكريم وعمره تسع سنوات ؛ ثم حفظ بعض المتون واستعد لإكمال دراسته فى الأزهر مع أخ له كان قد سبقه إليه . وصحبه معه هذا الأخ وسنه ثلاث عشرة . فالتحق بالأزهر . ولما فتحت الجامعة المصرية الأهلية أبوابها سنة ١٩٠٨ انخرط فى سلك طلابها ، واستمع إلى محاضرات المستشرقين بها ، وأخذ فى تعلم اللغة الفرنسية واستطاع

فى سنة ١٩١٤ أن يلفت نظر أساتذته فى هذه الجامعة برسالته عن أبى العلاء ، فاجتمع رأيهم على إرساله إلى فرنسا فى بعثة ، فدرس أولا فى مونبلييه ، ثم أكمل دراسته فى باريس ، وعنى بدراسة تاريخ الإغريق والرومان وآدابهما كما درس الآداب الفرنسية الحديثة . وعاد إلى مصر فعين أستاذاً بجامعته ، ولما تحولت حكومية أصبح أستاذ آداب اللغة العربية بها ، وتقلب فى مناصب مختلفة ، فتارة يكون عميداً للآداب أو مديراً لجامعة الإسكندرية أو مستشاراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم أو وزيراً .

ونراه فى سنة ١٩٢٧ يحاول أن يكتب سيرته ، وقد نشر منها أولا جزءاً خاصًّا بطفولته وصباه. وسماه «الأيام» ، وأتبعه بجزء ثان عن حياته فى القاهرة بالأزهر والجامعة ، وأعطاه نفس العنوان . ونشر ببعض المجلات أخيراً أيامه أو مذكراته عن رحلته إلى فرنسا والمدة التى قضاها فيها ، حتى عاد إلى وطنه .

وهو يصف فى الجزء الأول برقة ودقة حس كيف كان ينمو هذا الطفل الضرير ، وكيف أخذ يسيطر تدريجاً على العالم الخارجى من حوله ، وكان يشبه فى أول الأمر لغزاً كبيراً أو طلسما لا يستطيع فهمه ولا معرفة كُنْهه ، يقول فى السطور الأولى من أيامه :

« إذا كان قد بقى له من هذا الوقت " وقت الطفولة " ذكرى واضحة بيِّنة لا سبيل إلى الشك فيها ، فإنما هى ذكرى هذا السِّياج الذى كان يقوم أمامه من القصب "الغاب" والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار . وهو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس . ويذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقترباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ فى ثناياه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية . وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية ، وكان

آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً . فقد كانت تنتهى إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ؛ وكان لها فى حياته أو قل فى خياله تأثير عظيم . يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسد الأرانب التى كانت تخرج من الدار كما يخرج منها ، وتتخطى السياج وثباً من فوقه أو انسياباً بين قصبه إلى حيث تقرض ما كان وراءه من نبت أخضر . يذكر منه الكرنب خاصة . ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعشّى الناس . فيعتمد على قصب هذا السياج مفكراً مغرقاً فى التفكير ، حتى يرده إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتفّ حوله الناس وأخذ ينشدهم فى نغمة عذبة غريبة أخبار أبى زيد وخليفة ودياب ، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب . . ثم يذكر أنه كان لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفى نفسه حسرة لاذعة ، لأنه كان يقدّر أن سيُقْطَع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى . فتخرج فتشده من ثوبه ، فيمتنع عليها . فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامة "نبت ضعيف" وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه ، ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين ، فتفتحهما واحدة بعد الأخرى . وتقطر فيهما سائلا يؤذيه ولا يجدى عليه خيراً . وهو يألم ؛ ولكنه لا يشكو ولا يبكى لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكّاء شكّاء . ثم ينقل إلى زاوية فى حجرة صغيرة ؛ فتنيمه أخته على حصير قد بسط عليها لحاف ، وتلقى عليه لحافاً آخر . . ثم يأخذه النوم ، فما يحس إلا وقد استيقظ والناس نيام ومن حوله إخوته وأخواته يغطون ؛ فيسرفون فى الغطيط ، فيلقى اللحاف عن وجهه فى خيفة وتردد ؛ لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه ، وكان واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أوأخرج أحد أطرافه من اللحاف فلا بد أن يعبث به عفريت من العفاريت الكثيرة التى كانت تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه » .

بهذا الصوت العذب وهذا البوح الصريح عن حياته وكل ما اضطرب فيه من ضيق عيش أو ضيق حِس يكتب طه حسين أيامه ، فيؤثر فى نفس قارئه

تأثيراً بعيداً ، ويجذبه جذباً إلى متابعته ومشاركته مشاركة وجدانية ، إذ يأسى لهذا الطفل الضرير وما كان يتقلب فيه من مخاوف وآلام ، جلبهما عليه فقد بصره ، وكانت الدنيا تضيق من حوله ، حتى ليظن أنها تنتهى بقصب السياج الممتد أمام بيته ، وتلك القناة التى لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة . وفى النور والظلام ، وفى القصب والقناة أشباح وكائنات غريبة لا تكاد تحصى . ويحدثنا كيف أخذ ينمو وتتسع الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة من حوله قليلا قليلا . ولاحظ أن أبويه يحنوان عليه أكثر من إخوته ، فكان يحس من أمه رحمة ورأفة ويجد من أبيه ليناً ورفقاً ، وأحس أن أمه تأذن لإخوته فى أشياء تحظرها عليه ، فكان ذلك يؤذيه ، واستحال هذا الإيذاء إلى حزن صامت عميق ، إذ سمع إخوته يصفون أشياء لا يعرفها ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى ، يقول :

« وكان يأكل كما يأكل الناس ، ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب ، ما الذى يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شىء ، وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطبق المشترك " بينه وبين أهله " ثم رفعها إلى فمه . فأما إخوته فأغرقوا فى الضحك ، وأما أمه فأجهشت بالبكاء ، وأما أبوه فقال فى صوت هادئ حزين ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى ، وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته . من ذاك الوقت تقيدت حركاته بشىء من الرزانة والإشفاق والحياء لا حد له . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية ، ومن ذلك الوقت حرّم على نفسه ألواناً من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين » .

وعلى هذا النحو يعرض علينا طفولته ملونة بالضرورات والأخطاء الطبيعية لفقد بصره ، وقد أخذته هذه الحادثة بألوان من الشدة فى حياته لا فى طعامه وحده ، بل أيضاً فى لعبه ولهوه ، حتى لا يتعرض للضحك أو يثير الإشفاق ، وكان أحب شىء إليه أن يسمع الشاعر أو حديث الرجال إلى أبيه والنساء إلى أمه ، وبذلك تعلم حسن الاستماع ، وكان من أجمل ما يسمعه حينئذ فى مجلس أبيه

قصص الغزوات والفتوح وأخبار عنترة والظاهر بيبرس وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين . واسترسل فى السماع ، فهو كل لهوه ، فسمع وحفظ الأغانى الشعبية وتعديد النساء، كما سمع وحفظ الأوراد والأدعية . وفى أثناء ذلك كان يختلف إلى الكُتّاب لحفظ القرآن، ويرسم لنا صورة دقيقة عن هذا الكتاب فى القرن الماضى و « سيدنا » الذى كان يحفّظه والعريف . ولم يقدم له هذا الكُتّاب كل ما كان يريد من غذاء عقلى ، فتحول إلى قصة الزير سالم وأبى زيد وغيرهما من المسامرات الشعبية ، وأنسى القرآن خلال ذلك وعاد إلى حفظه ، وأخذ يستعد للانتظام فى الأزهر ، فحفظ أطرافاً من مجموع المتون والألفية . ونراه يسترسل فى الحديث عن شيوخ بلده وما كانوا يعلّمون الناس ، كما يسترسل فى الحديث عن علم الصوفية وما كانوا يذيعونه من آراء، ويذكر أنه أكبّ على كتب السّحر والتصوف والقصص الشعبية المختلفة ، ويعرض كثيراً من المعتقدات الخرافية التى كانت تنتشر فى العامة والتى كان لها تأثير عميق فى نفسه ، ويصف وصفاً مؤثراً وفاة أخت له ، وأخٍ نزعته الكوليرا فى سنة ١٩٠٢ وطبع الحادثان حياة الأسرة بطابع حزن لم يفارقها، فأصبحت فى حداد متصل وألم يتبع بعضه بعضاً . ويرحل عقب ذلك مع أخيه إلى الأزهر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ويأخذ فى الدراسة به إلى جانب أحد أعمدته . ونراه يلتفت فى نهاية هذا الجزء إلى ابنته ، وكانت فى التاسعة من عمرها ، وكان أستاذاً بالجامعة ، فيحدثها عن نفسه حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر قائلا :

« إن كان فى ذلك الوقت لصبىٌ جِد وعمل ، كان نحيفاً شاحب اللون مهملَ الزىّ أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى ، تقتحمه العين اقتحاماً فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفى هذا القميص الذى يبين من تحت عباءته ، وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفى نعليه الباليتين المرقعتين . تقتحمه العين فى هذا كله ، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف واضحَ الجبين مبتسم الثغر

مسرعاً مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين . تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شيء من الرفق ، حين تراه فى حلقة الدرس مصغياً كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً ، مبتسما مع ذلك لا متألماً ولا متبرماً ولا مظهراً ميلا إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون إلى اللهو . عرفته يا ابنتى فى هذا الطور ، وكم أحب لو تعرفينه كما عرفته ، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق ، ولكن أنى لك هذا وأنت فى التاسعة من عمرك ، ترين الحياة كلها نعيما وصفواً . عرفته ينفق الأيام والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً ، يأخذ منه حظه فى الصباح ، ويأخذ منه حظه فى المساء ، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً ، ولا مفكراً فى أن حاله خليقة بالشكوى . ولو أخذت يا ابنتى من هذا اللون حظاً قليلا فى يوم واحد لأشفقت أمك ولقدمت إليك قدحاً من الماء المعدنى ولانتظرت أن تدعو الطبيب . لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خُبْز الأزهر ، وويل للأزهريين من خبز الأزهر ، إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات . وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود ، وأنت لا تعرفين العسل الأسود ، وخير لك أن لا تعرفيه » ويقرن هذه الحياة البائسة إلى حياته الناعمة التى انتهى إليها ، ويرد ذلك إلى زوجته الفرنسية التى بدلته من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملا ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفواً .

وننتقل معه إلى الجزء الثانى من الأيام ليحدثنا عن سكناه فى أحد الأزقة بجوار الأزهر وما كان يلقى فى مسكنه ومطعمه من ضروب العنت والمشقة ، ويطيل الحديث عن الأزهر وصحنه ودروسه ، وينقل إلينا نقلا دقيقاً صورة الحياة العلمية فيه حينئذ وما كان فيها من صلاح وفساد ، ويشيد بالشيخ محمد عبده ومحاضراته ، ويكثر من ملاحظاته على رفاقه والشيوخ من حوله والصناع والباعة وغير الصناع والباعة من هذا اللفيف الذى كان يؤلف بيئته التى عاش فيها لأول عهده

بالقاهرة . ويغرق فى دروس الأزهر . ويعود إلى البلدة بآراء جديدة فى الدين ، وينكر الناس منه ذلك . ثم يرد إلى الأزهر فيمعن فى الفقه والنحو والمنطق ، ويأخذ فى جدال الشيوخ ويتعمق فى الاعتراضات والأجوبة على طريقة القوم، ويقف على حياتهم ، وينقد بعضهم نقداً مرًّا ، ولا يلبث أن يتجه إلى الأدب ودروس الشيخ سيد المرصفى خاصة . فقد وجد فيها ما يسد حاجته ورغبته، فآثرها على غيرها من الدروس . وأخذ فى نقد الشيوخ وأفكارهم نقداً حرًّا ثائراً ، ورُمى بالكفر والإلحاد فلم يهن ، ولم يضعف ، بل أقبل على قراءة كتب قاسم أمين وغيره من المجددين، كما أقبل على الجريدة التى كان يصدرها لطفى السيد حينئذ ويذيع فيها آراءه الحرة . وأنشئت الجامعة القديمة . وإذا هو يختلف مع قائده إلى دروس الأزهر مصبحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً . ويتسع أفقه عن طريق ما سمعه فى الجامعة من المستشرقين وغيرهم : بل تفتح له آفاق جديدة ، فقد اتصل ببيئة مغايرة لبيئته القديمة ، واستمع إلى أساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم — كما يقول — وبين أساتذته فى الأزهر . وعكف على هؤلاء الأساتذة ومحاضراتهم ، وكادت تنقطع الصلة بينه وبين حياته القديمة « إلا أنه ربما ألم بالأزهر مرة فى الأسبوع أو الأسبوعين ، وإلا أنه ربما لقى أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين ، وإلا أنه كان يزور الشيخ المرصفى من وقت إلى وقت » .

وعوّل على قطع كل صلة بينه وبين الأزهر لولا أنه وجد عند أبيه رغبة فى أن يتم دروسه به ، فاضطر إلى أن يحيا حياة مشتركة يتجاذبه فيها قديم الأزهر وجديد الجامعة . وإذا كان قد أنهى الجزء الأول من أيامه بتوجيه الحديث إلى ابنته فإنه أنهى هذا الجزء بتوجيه الحديث إلى ابنه : وكان قد أتم دراسته فى جامعة القاهرة وانتوى أن يعبر البحر إلى باريس ليطلب فيها العلم كما طلبه أبوه فيها من قبل . وما من شك فى أن هذه السيرة الدقيقة تعد فريدة فى العربية فإن كاتبها عرض فيها نفسه وبيئته المصرية من جميع أطرافها فى القرية وفى المدينة وفى الكُتَّاب والأزهر والجامعة لا يترك شيئاً هنا وهناك دون أن يحصيه ويرسمه رسماً بارعاً .

٣

أحمد أمين

وأهم ترجمة ذاتية كتبت بعد الأيام هى « حياتى » لأحمد أمين الذى اشتهر بكتاباته فى الحياة العقلية العربية . ولد سنة ١٨٨٦ للميلاد ، وكان أبوه مدرساً فى الأزهر وفى مسجد الإمام الشافعى كما كان إمام مسجد ، وعمل حيناً مصححاً فى المطبعة الأميرية ببولاق . فهو لم يولد فى الريف أو فى الصعيد مثل على مبارك أو طه حسين ، وإنما ولد فى القاهرة بحىّ الخليفة . وألحقه أبوه بالكُتّاب ، ثم بمدرسة أم عباس ، وعاد فأدخله فى الأزهر ، وتركه إلى مدرسة القضاء الشرعى فتخرج فيها ، واشتغل مدرساً بها ، ثم قاضياً شرعيّاً ، وفى أثناء ذلك أخذ فى تعلم اللغة الإنجليزية . ولما أصبحت الجامعة المصرية حكومية انتقل إليها مدرساً للغة العربية ، وظل فى كلية الآداب ، حتى أصبح عميداً لها ، ثم اختير مديراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم ، فنهض بها ، وأسس الجامعة الشعبية . وسافر إلى أوربا فى بعض المؤتمرات . وكانت حياته العلمية خصبة فترك مؤلفات كثيرة . واشترك فى ترجمة غير كتاب ، وترجم أحياناً منفرداً . وما زال يواصل جهاده فى التأليف ، حتى توفى سنة ١٩٥٤ .

وترجمته « حياتى » كتبها فى أواخر أيامه ، فهى تصف حياته من أولها إلى نهايتها تقريباً ، غير أنها لا تعنى بهذه الحياة بمقدارما تعنى بالأحداث الهامة التى ارتبطت بها ، فهو فيها إلى ذوق المؤرخين أقرب منه إلى ذوق الأدباء مثل طه حسين ، وربما دفعه إلى ذلك دراساته السابقة فى العرب وتاريخهم وحياتهم الفكرية ، فانحدر فى أغلب ما كتب من تاريخ نفسه إلى تاريخ عصره ، ولم

يعن بأحداثه بل تحول مؤرخاً يسجل . وهو فى هذا التسجيل قلما انفعل بما يرى ويشاهد على عكس طه حسين فى أيامه التى تشبه مرآة صافية تعكس كل حياته بدون أى حجاب أو أى مواربة . وقد يرجع ذلك إلى حياء شديد فى أحمد أمين . جعله يخفى كثيراً من جوانب حياته أو قل من جوانب نفسه ، ولعل من الطريف أنه اعترف بذلك فى مقدمته ، فقال إنه لم يذكر كل الحق لأن منه ما يرذل قوله وتنبو الأذن عن سماعه ، وكان ينبغى أن يذكر الحق كله ، حتى يكون الكتاب اعترافات كاملة وترجمة شخصية تامة .

ومع ذلك فالكتاب فيه غير قليل من الاعترافات ، وهو يسوق ذلك فى بساطة . تشوق القارئ إلى متابعته . ونراه يستهله بأن الإنسان نتيجة حتمية لكل ما مر عليه وعلى آبائه من أحداث ، وكأنه يؤمن بعامل الوراثة والبيئة فى تكوين الشخص . ولكنه لم يحدثنا طويلا عن أثر الوراثة فيه ، فقد عنى بالبيئة أكثر مما عنى بالوراثة . ويقول إنه مصرى صميم نزحت أسرته من قرية من قرى مديرية البحيرة فى الدلتا إلى القاهرة فراراً من ظلم الحكام للفلاحين فى تحصيل الضرائب وتسخيرهم كالعبيد . وعاشت الأسرة فى حى الخليفة . والتحق أبوه بالأزهر وتخرج فيه ، وأصهر إلى أسرة من العطارين هاجرت من مديرية المنوفية إلى القاهرة . وكان رابع ولد أنجبه أبوه . ويصف لنا مسكنه البسيط وحارته ، ويطيل فى وصف سكان الحارة ، وكأنه يريد أن يطلعنا على الحياة فى أحياء القاهرة أواخر القرن الماضى ، ولم تكن المدنية قد تغلغلت فيها ولا أثرت فى سكانها . فالحياة فى البيت وخارجه قديمة . تغمرها العواطف الدينية . ويحدثنا أنه كان ضعيف البصر ، كليل النظر ، ورث ذلك عن أمه كما ورث عن أبيه الإفراط فى الجد وتحمل المشقات والاستجابة لعوامل الحزن والإيمان بالله إيماناً لا تزلزله الفلسفة ولا تشكك فيه مطالعاته فى كتب الملحدين . وكانت معيشته فى بيته أثناء نشأته بسيطة : فشب وشاخ لا يحفل بمأكل ولا مشرب ولا ملبس . بل يحب البساطة فى كل شيء

حتى فى الحديث والإلقاء والكتابة . ويدخل الكُتّاب ليحفظ القرآن، ومن أجمل ما فى هذه الترجمة وصفه لذلك الكتاب وطريقة التعلم فيه، يقول :

« هو حجرة متصلة بمسجد وبجانبها دورة مياهه . وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال . قد انسلّت منه بعض عيدانه ؛ وزير فيه ماء يكاد يسودّ من الوسخ ، عليه غطاء من خشب . قد ثبت فى الغطاء حبل طويل ربط فيه كوز ليستقى منه الشارب. ويتناول الكوز ليشرب منه النظيفُ والقذر والمريض والصحيح، وصندوق صغير من صناديق الجاز وُضعت فيه ألواح . بعضها صفيح قد صدئ ؛ وبعضها خشب قد زال طلاؤه؛ كُتب عليها بعض آيات القرآن بالحبر الأسود لا تكاد ترى . وشيخ قد لبس عمامة وقباء من غير جبة وبيده عصاً طويلة . بسمار كبير فى الحائط علقت فيه "الفلقة" وهى عصاً غليظة تزيد قليلا على المتر ، ثقب فيها ثقبان ثبت فيهما حبْل . فإذا أراد سيدنا ضربَ ولد أدخلت رجلاه فى هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة . فلا تستطيع القدمان حركة ، ونزل عليهما سيدنا بالعصا . ثم عود من الجريد طويل يستطيع سيدنا أن يضرب به أقصى ولد فى الحجرة . وهذا كل أثاث الكتاب . نذهب إليه صباحاً ، ونجلس على هذا الحصير متربعين متلاصقين . ويأخذ كل منا لوحه من الصندوق ؛ وكان لوحى جديداً ، إذ كنت مبتدئاً . وكان لسيدنا عريفٌ يساعده فى كتابة الألواح للأطفال ويقوم مقامه إذا غاب . كما يساعده فى مدّ رجل الطفل فى الفلقة عند الحاجة . ويقرأ كل تلميذ فى لوحه حسب تعلمه ، هذا يقرأ ألف باء وهذا سورة الفاتحة . وهذا سورة تبارك وهكذا . فإذا فرغنا من قراءة الدرس الجديد استمع لنا الماضى . وهو ما حفظناه من القرآن فى الدروس الماضية ، فإذا جاء وقت الغداء أخذ سيدنا من كل ولد قرشاً أو نصف قرش أو مليما حسب مقدرته ، وبعث سيدنا العريفَ : فأحضر له ماجورين أخضرين : فى أحدهما فول نابت ومرقة ، وفى الآخر مخلل ومرقة ؛ والتفّ التلاميذ حوله بعد أن أحضروا خبزهم الذى جاءوا به من بيوتهم . وأخذت أيديهم تغوص باللقمة فى

مرقة الفول أحياناً وفى مرقة المخلل أحياناً : ولا بأس أن يكون فى الأولاد مريض وصحيح وقذر ونظيف وملوث وغير ملوث . فعلى الله الاتكال . والبركة تمنع من العدوى . وإذا قرأنا وجب أن نهتز ووجب أن نصيح ، فمن لم يهتز أو لم يصح لم يشعر إلا والعصا تنزل عليه فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معاً ، ونبقى على هذه الحال إلى قرب العصر ، فنخرج إلى بيوتنا . ومن حين لآخر يمر أبو الطفل على سيدنا ، فيسأله عن ابنه ويطلب منه أن ينفض له الفروة . وهذا اصطلاح بين الآباء وفقهاء الكُتَّاب أن يشتدوا على الطفل ويضربوه ، فلا تعجبْ بعد ذلك إذا وجدت أرواحاً ميتة ونفوساً كسيرة . ومن أجل هذا كان أكره شيء علينا الكُتَّاب واسم الكتاب وسيدنا » .

ومكث فى الكُتَّاب خمس سنوات حفظ فيها القرآن وتعلم القراءة والكتابة ، وكان أبوه يرعاه أثناء ذلك فى البيت . فيتلو أمامه ما حفظه ويسمعه . ويلحقه بمدرسة أم عباس ثم يخرجه منها فى الرابعة عشرة من عمره ويلحقه بالأزهر . فيلبس العمة والمركوب ويدخل فى الجبة والقفطان . ويقيده هذا الملبس ؛ فلا يجرى كما يجرى الأطفال ولا يمرح كما يمرح الفتيان ؛ وبذلك شاخ قبل الأوان . ويصبح من طلبة الأزهر يختلف إلى حلقاته ودروسه ، ويصف لنا كيف ضاق بطريقة التعليم فيه كما ضاق بها من قبلُ طه حسين ؛ وتعلن الجمعية الخيرية الإسلامية عن حاجتها إلى مدرسين لتعليم اللغة العربية ؛ فيترك الأزهر ويصبح من مدرسى هذه الجمعية ، ثم يتركها إلى وزارة التربية والتعليم . ويعطينا صورة واضحة عن التعليم فى المدارس حينئذ . وتفتح مدرسة القضاء الشرعى أبوابها فى سنة ١٩٠٧ فينتظم فيها . ويستمع إلى من يحاضرون بها ، وكانوا من خيرة الأساتذة . وكان ناظرها عاطف بركات من خيرة النظار . تخرّج فى مدرسة دار العلوم وتعلم فى أوربا وعرف نظم الجامعات بها . فلما وُكلت إليه هذه المدرسة حوّلها جامعة صغيرة يدرّب فيها الطلاب على حرية الرأى ويأخذهم بأسباب البحث ، وقد أعجب بالطالب أحمد أمين . فعينه عقب تخرجه معيداً

له فى دروس الأخلاق، ثم عيّن قاضياً شرعيّاً فى الواحات الخارجة ، ولم يلبث أن عاد إلى مدرسة القضاء الشرعى ، وأحس حاجته إلى تعلم الإنجليزية ، فأخذ فى تعلمها ووفق إلى سيدة إنجليزية كان لها أثر كبير فى عقله ونفسه، وفى هذه الأثناء ألف مع جماعة من خريجى مدرسة المعلمين « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ولها فضل عظيم فى حياتنا الأدبية والعلمية بما ألف أعضاؤها وترجموا ونشروا بين كتب مختلفة . وأخذ يتصل بالأندية الأدبية وبجريدتى المؤيد والسفور وغيرهما من جرائد وصحف مما كان له أثره فى تنمية نزعة الكتابة والمحاضرة عنده . ونراه يعرض علينا زواجه وجانباً من حياته المنزلية فى سلوكه مع زوجته وتربية أولاده . وتنشب الحركة الوطنية ، ويسهم فيها ولكن بقدر ، وينقل من المدرسة إلى القضاء الشرعى ، فيظل فيه أربع سنوات ، يدعوه فى نهايتها صديقه طه حسين لأن يكون مدرساً بكلية الآداب ، فيلبى دعوته ويصبح بين مدرسى هذه الكلية ، وكانوا خليطاً من المصريين والأجانب ، ويخلع زيه القديم ، ويلبس الزى الأوربى الحديث، ويندمج فى الحياة العلمية الجامعية ويأخذ فى تأليف كتبه القيمة . ويسافر إلى الآستانة للبحث عن بعض المخطوطات ، ويصف لنا تركيا فى عهد مصلحها العظيم كمال أتاتورك كما يصف مكتباتها الغنية بالكتب العربية . وتتاح له فرصة زيارة الشام والعراق فى رحلات الطلاب ، ويصف لنا مشاهداته هنا وهناك . وفى سنة ١٩٣٢ يحضر مؤتمر المستشرقين الذى انعقد بليدن فى هولاندة ، فطوف فى بلدان أوربا ورأى المدنية الغربية تحت عينيه لأول مرة ، وأكمل استفادته من هذه الرحلة برحلة أخرى سنة ١٩٣٨ إذ اختير عضواً فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى بروكسل .

ويخرج من حديثه عن رحلاته إلى وصف حياته فى الجامعة وكيف تطورت حتى عين عميداً لها ويحدثنا عن كثير من مواقفه الحازمة فى عمادته وبمجلس الجامعة . ثم يترك العمادة ويخلص للأستاذية والتأليف والنشر . ثم ينتدب مديراً للثقافة ، ويمثل مصر فى مؤتمر فلسطين الذى انعقد بلندن سنة ١٩٤٦ . ويحال

أخيراً إلى المعاش ويضطر إلى عملية فى شبكية عينه؛ ويصف وصفاً مؤثراً مشاعره حين دخل المستشفى لإجراء هذه العملية . وينال تقدير الدولة فيمنح درجة الدكتوراه الفخرية من الجامعة وجائزة الدولة الأدبية . هذه هى سيرته ، وهى تطوى فى تضاعيفها سيرة ستين عاماً من حياتنا بما فيها من أحداث ورجال وتطور فى شئوننا الاجتماعية والعلمية .

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار
  عرض ودراسة
  الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
  الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامى
  الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسى الأول
  الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسى الثانى
  الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
* عصر الدول والإمارات (١)
  الجزيرة العربية – العراق – إيران
  الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
* عصر الدول والإمارات (٢)
  مصر – الشام
  الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
  الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
  الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
  الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
  الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
* شوقى شاعر العصر الحديث
  الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربى المعاصر فى مصر
  الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
* البارودى رائد الشعر الحديث
  الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
  الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
* البحث الأدبى : طبيعته – ومناهجه – أصوله – مصادره
  الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
  الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
  الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
* فصول فى الشعر ونقده
  الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
  الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
* المدارس النحوية
  الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
* تجديد النحو
  الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
* تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
  الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون
  الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

* الرثاء
الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات
* المقامة
الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة
* النقد
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
* الترجمة الشخصية
الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة
* الرحلات
الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

* المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول – الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى – الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
* كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة
* كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة
* الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة اقرأ

* العقاد
الطبعة الرابعة
* البطولة فى الشعر العربى
الطبعة الثانية
* معى
الطبعة الثانية
* الفكاهة فى مصر
الطبعة الثانية

رقم الإيداع	١٩٨٧/٢٤١٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٨٤-٣

١/٨٧/٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .